محمد مجدي

داخل الغرفة الزجاجية

رواية

ابن النفيس للنشر والتوزيع



اسم الكتاب : داخل الغرفة الزجاجية

المؤلف : محمد مجدي

إخراج فنى : محمد الزمزمى

تصميم الغلاف : أحمد مراد

رقم ايداع : 2013/9707

ترقيم دولى : 978-977-5051-11-0

الطبعة الأولى : أغسطس 2013

مدير المبيعات والتسويق : شريف الليثى

المدير العام : صلاح أبودية

فرع مصر

263 ش عبد الوهاب عبد اللطيف ـــ كوبرى القبة

موبايل : 01143775656 ـــ 01020034334

فرع الكويت

ص . ب : 3111 حولي ـــ الكويت

الرمز البريدى : 32032

E__mail : dar_ibn_alnafis@yahoo.com

Ibn al Nafees publishing house

إهداء

إلى أحب الناس إلى قلبى، أمى التى أخذتنى عاماً بعد عام إلى معرض الكتاب حتى أدمنت القراءة.

إلى أكثر الرجال نجاحاً، أبى الذى علمنى أن تحقيق المعادلة الثلاثية فى الحياة ليست ضرباً من الخيال. إقتصادياً واجتماعياً ودينياً.

داخل الغرفة الزجاجية

الفصل الأول

«لا تيأس من الحياة، لا تيأس من تكفير أخطاء الماضي، كل بني آدم خطاؤون وأنت لست استثناء، مؤسسة الأديان الثلاثة هي طريقك لإزاحة ما في صدرك من هموم وأسرار، ومساعدتك على تكفير ذنبك مهما عظم وكبر حجمه عن طريق مواردنا المادية والمعنوية المتعددة، وأهم ما في الأمر أن العملية تتم بدون علم أو تدخل أي من السلطات الرسمية. نحن نساعد على خلق عالم أفضل، نحن لا نطالب بأي مقابل، نحن نؤمن بأن الاعتراف هو أولى خطوات التكفير، نحن نؤمن بأن العقاب لن يعيد اللبن المسكوب. ادخل على موقعنا الإلكتروني لتشاهد قصص من تمت مساعدتهم وتغيرت حياتهم، نحن نقضي فترة واحدة في كل بلد، نحن بجانبك فلا تضيع فرصة تغيير مجرى حياتك، أرسل بياناتك على موقعنا الإلكتروني وسيتم الاتصال بك».

هذا هو الإعلان الذي قرأه عادل فتحي أثناء متابعته للجريدة في شرفة منزله المطل على النيل في حي الزمالك، كان رجلًا يحب الحياة ولديه روتين يومي يحب الالتزام به كثيرًا، فهو يستيقظ

في السابعة صباحًا، يرتدي روبًا منزليًا فاخرًا، يتناول القهوة التركية مع قراءة جريدته المفضلة في شرفة المنزل المطلة على النيل مباشرة، يستمتع كثيرًا بالجو والمرائحة في هذا الوقت المبكر من اليوم؛ خصوصًا أنه يسكن بالطابق العاشر.

عادل يعشق ما آلت إليه حياته، يستمتع بكل مرة يدلف فيها إلى شقته الفسيحة، ينظر إلى اللوحات والتحف التي تزين جدران منزله كفخر الأب بابنه، يتطلع إلى سيارته الفارهة كما ينظر الشباب إلى امرأة ترتدي تنورة قصيرة، تعدى الثلاثين و لم يتزوج.. فعمله كطبيب نسائي في قسم التخصيب أفقده مع الوقت أيَّ انجذاب جنسي تجاه النساء، و لم يكن ضمن خططه إنشاء أسرة، فطوال حياته لديه هدف واحد و لم يكن ليدع أيًا كان أن يقف في طريق حلمه. لقد حقق كل ما يحلم به، ولكن الطريق الذي سلكه هو الشيء الوحيد الذي ينغص عليه حياته الآن، نعمة النسيان ليست في صفه.. يتذكر ما أقدم على فعله يوميًا، وكلما حاول النسيان؛ تبلورت الأحداث أمامه كأنها شبح كل مهمته في الحياة هي تذكيره بماضيه، لو هناك عقّار ما يعطيه القدرة على نسيان جزء من ماضيه لما تردد في دفع نصف عمره ثمنًا له.. لو بإمكانه استئصال ماضيه من عقله كما يُستأصل الورم الخبيث من الجسد لسافر إلى آخر العالم لإجراء هذه العملية.

تذكر الماضي بصفة دائمة هو ما جعل هذا الإعلان في الجريدة يلفت انتباه عادل، فقرأه أكثر من مرة وبدأ يقلب الأمر في عقله،

هل من الممكن التكفير عن الذنب والعيش بضمير مرتاح.. كيف يستطيع الوثوق بأن هدف هذه المؤسسة هو فعلًا المساعدة على تكفير الأخطاء وأنهم لن يبلغوا أيًا من السلطات..

بعد الانتهاء من القهوة.. دخل إلى غرفة مكتبه وبدأت أصابع يده تكتب اسم موقع مؤسسة الأديان الثلاثة على لوحة المفاتيح.

******

أنهى حسنين صلاة الفجر وسلم على الإمام كعادته، ثم خرج من المسجد متوجهًا إلى منزله، ذهب لتغيير جلبابه وارتداء ملابس العمل ولكنه تأخر في الذهاب قليلًا، فباله كان مشغولًا في الأيام الماضية، الإعلان الذي قرأه في إحدى الجرائد يسيطر تمامًا على فكره، إذا كان هنالك شخص يريد الاعتراف بما اقترفته يداه وتلقي المساعدة للتكفير عن ماضيه، فهو أحق الناس بهذه الفرصة.

يعمل حسنين فلاحًا في إحدى المزارع وساعدته نشأته في الريف كثيرًا في عمله، كان أسمر اللون مجعد الشعر.. مع ملامح تبدو عليها الطيبة كأهل النوبة، نشأ وسط عائلة شديدة التحفظ والتمسك بالعادات والتقاليد، ذهب بضع سنوات للعمل في القاهرة ثم عاد شخصًا آخر، عاد فاقدًا روحه المرحة وقد تم استبدالها كما يقول الناس بنظرة حزن عميق ملازمة لعينيه طوال الوقت، دائمًا ما توجه إليه أسئلة عن التغير الملحوظ في شخصيته بعد عودته من القاهرة.. ولكنه كان دائم الاقتضاب في إجاباته فلم تكن تستطيع تكوين أي رأيٍ عمّا قاله، وبعد فترة من الوقت أسلم أهله

وأصدقاؤه إلى شخصيته الجديدة.. وترك الأمر إلى خيالات كل منهم، فكان الإجماع أن ما أثر على شخصية حسنين هو مقدار الانحطاط الأخلاقي الذي رآه في القاهرة في سنوات عمله الأخيرة. في الحقيقة لم يكن ما يملؤ عينيه هو الحزن، بل الندم في أشد حالاته، يتزايد تدينه مع الوقت ومعه يتزايد شعوره بالندم، كأنه أعراض التقدم في السن.. يزيد ولا ينقص.

قبل تغيير ملابسه وارتداء ملابس العمل؛ صب كوبًا من الشاي الثقيل وجلس يرتشفه في الهواء الطلق أمام منزله المتواضع ذي الغرفة الواحدة. يجب أن يتخذ قرارًا في هذا الإعلان الذي يشغل كل تفكيره، أصبح يفكر في الإعلان أكثر مما يفكر العاشق في عشيقته، يعلم أنه خائف ولكن لم يستطع تحديد سبب خوفه، هل هو خائف من أن يكون إعلانًا زائفًا للإمساك بالمجرمين؟ ما الذي يجعله يثق بهذه المؤسسة.. هل من الممكن ابتزازه باعترافاته بعد تسجيلها؟ لم يكن يملك غير قوت يومه، لن يستطيعوا الاستفادة منه إذا قرروا ابتزازه.. ولكن من الممكن فضحه وسط عائلته وهو ما لن يرضاه أبدًا، أو هل السبب هو خوفه من زيادة الطين بلة بعد اعترافه وفشلهم في مساعدته؟ تعددت الأسباب والموت واحد، الشيء الوحيد الذي يثق به هو أن الإعلان سيظل يطارد أفكاره وسيحيا نادمًا على تركه لفرصة التكفير عن ذنبه ورفضه للمساعدة، كوكتيل من المخاوف يسبح بداخله ولكن خوفه من ضياع الفرصة كان أكبر.

******

إنه لموقع يليق بالشركات العالمية، هذا أول ما خطر على بال هند وهي تتصفح الموقع الإلكتروني لمؤسسة الأديان الثلاثة، خلفية الموقع بيضاء اللون مع ميل خفيف للأزرق السماوي في الجوانب، الكتابة باللون الأزرق الفاتح مع قليل من الكحلي، الصورة المصاحبة للخلفية تتكون من شيخ وقسيس وحاخام يبتسمون ابتسامة مريحة تشعرك أنهم أهل ثقة، أنت تعلم جيدًا أن الدين عرضة لاستخدامه في الخداع والدجل.. ولكن دائمًا ما يعطينا سكينة داخلية ناتجة عن نشأتنا في بلد يحترم الأديان.. حتى إن كان معظم شعبه بعيد عن التدين. بدأت تتصفح الخيارات أمامها؛ فشاهدت الخيار الأخير على يمين الصفحة وقد كتب عليه «التجارب السابقة»، تعلم جيدًا أن التجارب السابقة ليست مقياسًا للحكم على مصداقية أي شيء.. ولكن دائمًا ما نشعر بداخلنا أن في استطاعتنا التمييز بين التمثيل والحقيقة، نفس الشعور الذي ينتابنا ونحن نشاهد برامج الكاميرا الخفية ونحكم على كل برنامج، سواء كان حقيقة أو مجرد مجموعة ممثلين، وإذا ثبت أن البرنامج كان مجرد تمثيلية ينتابنا هذا الشعور الداخلي بأننا نعلم من البداية و لم نرد البوح، ومن هنا يأتي يقيننا بمقدرتنا الفذة على التمييز بين الحقيقة والتمثيل.

ضغطت على رابط التجارب السابقة؛ فظهر شريط بأسفله كتب عليه أسماء الكثير من البلاد، وبدأت تدخل على كل بلد وتشاهد التجربة كاملة وذهلها ما رأت، لا يمكن أن تكون هذه المؤسسة مجرد خدعة، القصور شديدة الفخامة في مختلف البلاد

التي تتم فيها هذه التجربة، وجودة الفيديو الذي تعرض به على الموقع، خلال متابعتها ازداد يقينها أن هذه المؤسسة ليست خدعة أو نشاطًا لغرض آخر، شاهدت قتلة ومغتصبين ومبتزين (بالتأكيد كانت وجوههم غير مكشوفة) وأسوأ ما يمكن أن تقترفه النفس البشرية، كانت تشعر بالصدق في اعترافاتهم وطريقة سردهم لقصصهم، وما أضفى جوًا من الواقعية؛ وجود الشيخ والقسيس والحاخام في أثناء سرد المعترفين لقصصهم، ومقاطعتهم لهم بأسئلة توضح بعضًا من معالم القصة تم تجاهلها إما عمدًا أو سهوًا من السارد، لقد وقعت في حب هذه التجربة وتخيلت نفسها جالسة أمام اللجنة تتلو عليهم قصة حياتها، وما أكثر ما لديها من مصائب اقترفتها وتود مشاركتها مع أحد ولا يوجد ما يمنعها غير الخوف من العقاب.

لم تكن هند نادمة تمامًا على ما اقترفته، ولكن ما دفعها إلى إرسال بياناتها إلى مؤسسة الأديان الثلاثة؛ كانت مشاعر متضاربة من الفضول في معرفة رد فعل الناس وخوض تجربة جديدة لكسر بحيرة الملل التي تتزايد مع مرور الوقت. كانت هند على قدر من الجمال، جسدها لا يختلف عن جسد أي من ممثلات الأفلام الإباحية يلفت أنظار كل من تقع عليه عيناه، لا نستطيع القول إن لديها وجهًا جميلًا، ولكنه جذاب يشتهي الرجال النظر إليه ولكنهم لا يشتهون حبه والزواج منه. أرسلت بياناتها إلى الموقع، ثم بدأت ترتب ما سوف تحكيه عن ماضيها، لا داعي لأي كذب أو

اختلاق فماضيها كافٍ بأن تشيب له الولدان، ظلت تتخيل الشيخ والقسيس والحاخام وهم يستمعون لها ويوجهون إليها الأسئلة.

******

كريم: لن أذهب معكم لا أريد سوى الجلوس وحيدًا.

الأخ الأكبر: سنوات عمرك تضيع منك هباءً.. أنت لا تسافر ولا تخرج للاستمتاع بوقتك ولا تصرف إلا القليل من الثروة التي في حوزتك.

كاد كريم أن يفقد أعصابه مع ذكر الثروة التي في حوزته، وأراد أن يصرخ في وجهه أنه من المسئولين عن دمار حياته ونفسيته، ولكنه تمالك نفسه وأجاب قائلًا: لا تقلق عليّ واتركني وحدي

الأخ الأكبر: كما تريد.

أغلق كريم باب غرفته وتأكد من تجهيز جلسته المفضلة في الشرفة التي تطل على حديقة واسعة. كانت الجلسة مكونة من علبة سجائر، كوب من القهوة الأمريكي الذي يعيد ملأه من ماكينة القهوة طوال اليوم، جريدته المفضلة، لاب توب حديث موصل بشبكة إنترنت على سرعة عالية، وتلفاز ال سي دي LCD عليه جميع القنوات الموجودة في الدش. يقضي معظم أيامه في مشاهدة برامج سواء عربية أو أجنبية، أفلام، مسلسلات، والكثير من الألعاب على شبكة الإنترنت؛ خصوصًا البوكر Poker. كان موقع لعبة البوكر مفتوحًا معظم الوقت للمتابعة والدخول في أي مباراة تبدو فرص الفوز فيها عالية؛ خصوصًا إذا شعر أن

اللاعبين من المبتدئين. على موقع اللعبة الكثير من الإعلانات، وكان دائم التجاهل لها ولكنه لاحظ شيئًا غريبًا خلال الأسبوع الماضي، لقد اختفت جميع الإعلانات من على الموقع وتم استبدالها جميعًا بإعلان واحد، إعلان مؤسسة الأديان الثلاثة الذي رآه أيضًا في الجريدة، تجاهل كريم الإعلان كثيرًا ولكن في النهاية أصبح الإعلان كسائس الجراج.. سوف تتجاهله مرات عديدة، ولكن في النهاية سوف تأتي مرة من المرات تعطيه فيها بعض الفكة، وجاءت هذه المرة عندما ضغط كريم على رابط الإعلان ودخل على الموقع.

كان كريم في منتصف العشرينات، شديد الوسامة مع شعر ناعم منسدل على جبهته، امتلأ جسده قليلًا منذ فترة نتيجة جلوسه معظم الوقت في المنزل، رومانسيًا ضعيف الشخصية من نوعية الشباب الذين تتم قيادتهم وتوجيههم.. سواء في علاقة عاطفية أو بين أهله وأصدقائه. آخر علاقات كريم العاطفية كانت منذ عامين، انقلبت حياته رأسًا على عقب بعد انتهائها وأعتزل الدنيا كراهب في التبت، انتهت العلاقة وانتهت بعدها طموحاته، لم يعد يريد الحياة.. فقدَ كلَ متعها.. أصبح الطعام ماسخًا، أصبحت النساء كائنات كريهة، أصبحت عائلته مجرد مسوخ يعيشون في بذخ لا يستحقونه، أصبح مدمنًا للبكاء كأنه متنفسه الوحيد، لم يعد يريد الحياة وفي نفس الوقت لم يقو على الانتحار، فأصبح في حالة من يحيا داخل زنزانة.. يتنفس ويأكل ويشرب ولكنه

غير واع بالدنيا.. كالموتى الأحياء في سلسلة أفلام «الشر الكامن Resident Evil»، ومن أجل هذه الحياة التي ساقه القدر إليها انبهر بتجربة الأديان الثلاثة، وشعر أن هنالك أملًا في التكفير عن ماضيه والعودة إلى عالم الأحياء، اقتنع بجميع التجارب السابقة التي شاهدها ولم يخطر على باله ولو للحظة واحدة أنه من الممكن أن تكون مجرد خدعة، كان كالغريق الذي يتعلق بقشة ولن يفكر هل هذه القشة صالحة لإنقاذه أم لا، ففي جميع الأحوال لا يوجد غيرها.

******

تقول كلمات إحدى أغاني الروك «هذه مجرد قصة روح مكسورة»، كأن الفرقة تتكلم عمًا آلت إليه حال كمال الدهان، لقد كُسرت روحه ونفسه وكبرياؤه.. كسرت ثلاث مرات، مرة حينما أحيل إلى التقاعد قبل ميعاده بعد ثورة ٢٥ يناير، مرة أخرى عندما تقاعد وبدأ يرى العالم بأعين مواطن عادي وليس ضابط شرطة تفتح أمامه جميع الأبواب سواء برضاء أصحابها أو بغير رضائهم، ومرة ثالثة عندما بدأ يستوعب مع مرور الوقت فداحة أفعاله أيام خدمته في الشرطة، في أمن الدولة تحديدًا.

كمال الدهان في منتصف الخمسين من عمره، ذو كرش عريض يخفي الكثير من العضلات أسفله، ووجه أسمر غليظ الملامح يعلم الناظر إليه جيدًا أن غلظته مكتسبة من نوعية عمل أو أسلوب حياة، حدث تغيير كلي في حياته بعد اندلاع ثورة ٢٥ يناير.

بعض الناس استفادوا من اندلاع الثورة.. فهناك من ترك السجون، من وصل إلى السلطة بعد أن كان مطاردًا أينما كان، من راجت تجارته بعد سقوط بعض المنافسين، أو من استطاع أن يستغل فرصة انشغال الأمن والمحليات فشيد مباني ما كان له أن يشيد ربعها في وجود القانون أو في الظروف العادية، على الصعيد الآخر هناك من عانى بسببها.. من انتقلوا من كرسي الحكم إلى مصطبة الزنزانة، من صودرت أملاكهم وأساطيلهم التجارية، من تحولوا من «سي السيد» على جميع الناس إلى «سي السيد» على زوجاتهم فقط، وكان كمال الدهان من النوعية الأخيرة التي نامت واستيقظت كأنهم في كابوس ينتظرون انتهاءه، ولكن مع مرور الوقت أدركوا الفاجعة.. فقد تم حبسهم في هذا الكابوس ولن يستطيعوا العودة إلى واقعهم الجميل، حتى إذا عاد واقعهم الجميل فلن يعودوا معه، فهم وجوه احترقت ولا يمكن عودتها إلى الساحة مرة أخرى.

ترجل كمال من سيارته وأخذ يمشي في حارة من الحارات الفقيرة حتى يبتاع بعض الخضار، أخذ يجول بنظره في العاملين بورشة النجارة أمامه، ثم توقف بعينيه على شاب أسمر في أوائل العشرينات.. شديد النحافة حليق الرأس، يرتدي سروالًا من الجينز الضيق مع تي شيرت أبيض، وبدأ متابعة حركته.. في البداية كان الشاب يعمل على صنفرة قطع من الخشب وهو يضع سماعات محمول صيني في أذنيه ويحرك جسده حركة طفيفة وكأنه يرقص بدون تركه للعمل، ثم جاءه عجوز من خلفه وأشار إلى ركن في

أقصى الورشة، فهم الشاب ما يعنيه العجوز فأخرج السماعات من أذنيه وترك الخشب واتجه إلى ركن الورشة مع نظرة نهم واضحة في عينيه، فكان في انتظاره إفطار معد على ورق جرائد.. مكون من فول ومسقعة وطرشي وباذنجان وطعمية وبطاطس وسلاطة والكثير من الخبز البلدي. أنهى إفطاره وانصرف من الركن عائدًا إلى مكان عمله وعلى وجهه ابتسامة كابتسامة القطط بعد الشبع، وقبل وضع السماعات في أذنيه نظر إلى هاتفه المحمول كأنه يقرأ رسالة.. ثم ابتسم ابتسامة من السهل على أي شخص أن يخمن أنها ابتسامة عاشق، بعدها وضع السماعات بأذنيه وبدأ يعمل من جديد بضعف حماسته.

تابع كمال الشاب الأسمر وقلبه يغلي من الغل والحقد.. وتمنى الموت لكل من يعيش حياة بسيطة سعيدة خالية من العقد كهذا الشاب، بالتأكيد لا يشعر الشاب أنه محظوظ، ولكن كمال يراه أشد الناس حظًا في التاريخ، كم يتمنى لو يستطيع البدء من الصفر، تذكر الإعلان الذي قرأه في الجريدة عن مؤسسة تساعد على النسيان أو على الاستغفار أو شيء من هذا القبيل، لا يتذكر تحديدًا ولكنه سيبحث عنها عند عودته إلى المنزل، من الممكن أن تكون خدعة ولكنه لا يهتم، إذا كانت حقيقة فستساعده على نسيان ماضيه، وإذا كانت خدعة فستكفل له إعدامًا جراء الكثير مما أقدم عليه فيموت ويستريح من كل شيء، إذا كان سيكمل حياته كما هو الآن فالموت راحة. عند دخوله المنزل بحث

عن الجريدة ثم أرسل بياناته وفي قرارة نفسه لا يصدق أن تكون حقيقة، فبالنسبة إليه لا يوجد أخيار في هذا العالم، ولكن يوجد فقط من يستطيع أن يؤدي هذا الدور.

******

الفصل الثاني

رجل في العقد السادس من العمر، يبدو عليه العجز ووجهه يوحي بوجه من تعدى عمره المئة عام، شعر أبيض معكوص إلى الخلف، تقوس في الظهر، وجه ملأته التجاعيد، أعين ثاقبة كالصقر بدون عدسات طبية كمعظم العجائز، من طريقة وقفته وإعطائه الأوامر للقائمين على العمل؛ يمكنك تخمين أنه المسئول.

كانوا يعملون في قصر فسيح من القصور القديمة التي تبدأ بصالة واسعة تشغل معظم الدور الأرضي في منتصف القصر، ثم عن اليمين واليسار توجد سلالم توصلك إلى الدور الأول؛ حيث تجد الغرف موزعة كالفنادق. كان العجوز يقف في الدور الأول ويقوم بإعطاء الأوامر لبعض العمال الذين يضعون اللمسات الأخيرة على خمس غرف زجاجية يشغلون مساحة كبيرة من صالة الدور الأرضى، تم توزيع الغرف بحيث تصبح كل غرفة منفصلة بذاتها فى ركن من أركان الصالة و الغرفة الخامسة فى المنتصف، كانت الغرفة بأكملها

مصنوعة من زجاج شفاف مع عمود زجاجى أسود اللون فى كل ركن، يستطيع الجالس بداخل كل غرفة رؤية الغرف الأخرى من خلال الزجاج الشفاف و رؤية الدور الأول من خلال السطح الزجاجى.

نادى العجوز على أحد العمال و كان يبدو عليه أنه ذراعه الأيمن:

ـــ كلارك، أخبرني بآخر التطورات.

ـــ كل شيء جاهز ومعد.. سوف أستقبل كل ضيف من ضيوفك بنفسي في الثامنة ، ثم أدخل كلًا منهم إلى الغرفة الخاصة به.

ـــ هل أجريتم بروفا؟

ـــ أجرينا البروفا.. وتم تسجيلها لكي تشاهدها بنفسك، فكل ضيف سوف يرى بوضوح الشيخ والقسيس والحاخام في الدور الأول، سيسمعون كل ما يحكيه وسوف يسمع جميع تعليقاتهم، وبالتأكيد كل ما يحدث سيتم تسجيله بالصوت والصورة.

ـــ لا مجال لأي أخطاء يا كلارك أنت تعلم ما تعنيه لي هذه الليلة.

ـــ أعلم تمامًا سعادتك.. ولهذا تأكدت من كل شيء بنفسي.

ـــ متى سيأتي رجال الدين؟

ـــ سيصلون بعد ساعة.

أدار العجوز رأسه إلى إحدى الغرف وسأل كلارك:

ـــ هل أعددت غرفتنا؟

ـــ تم تجهيز الغرفة بكل ما نحتاجه، فهناك ست شاشات لمشاهدة الغرف الخمسة ورجال الدين، وتم تركيب السماعات لنستطيع

سماع كل ما يقال.

ـــ سوف أذهب إلى الغرفة الآن وأختبر جميع المعدات بنفسي.

ـــ تفضل سعادتك.

نظر كلارك إلى العجوز بتردد ثم حسم أمره وسأل:

ـــ هل أنت واثق من قدوم جميع ضيوفك؟

نظر إليه نظرة ملؤها التصميم والأمل، ثم أجاب في بطء:

ـــ سوف يأتون، نحن نقدم لهم خدمة العمر، ولا يوجد من يرفض خدمة العمر.

******

في ليلة شديدة السواد قارسة البرد.. واحدة من تلك الليالي التي لا يتمنى المرء الخروج فيها، ذهب خمسة أشخاص إلى أحد القصور في حي المقطم للاعتراف بكل ما ارتكبوه في حياتهم، مخاطرة لا يختلف عليها اثنان، ولكن عندما يثقل القلب بالندم يتم تجنيب العقل. خمسة أشخاص لا تربطهم أي رابطة إلا مكان ذهابهم الليلة، ارتدى الجميع ملابسه، من يملك سيارة ركبها ومن لا يملك بحث عن مواصلة، و فى النهاية.. و فى الثامنة مساءً أصبح الجميع أمام قصر أسطورى منيف له أسوار عالية و حديقة مليئة بالأشجار تؤهلها لأن تكون غابة صغيرة ، و كان ذهابهم استجابة لإعلان مؤسسة الأديان الثلاثة.

وجد كل منهم شخصًا في استقباله وقت وصوله، هدأت أعصابهم قليلًا بعدما دخلوا وشعروا بنظافة وفخامة القصر

ثم الغرفة الخاصة بكل منهم. لم تكن الغرفة تحتوي على شيء باستثناء كرسي مريح — تم وضعه بحيث يصبح الجالس مواجه الدور الأول فى القصر — وطاولة صغيرة عليها زجاجة من الماء وأخرى من العصير وكوب فارغ، نظر كل منهم إلى السقف الزجاجي وبدأ في تصفح الدور الأول من القصر، ثم سمعوا صوت باب يفتح وخرج من إحدى غرف الدور العلوى ثلاثة رجال دين شيخ وقسيس وحاخام.. وجلسوا على ثلاثة مقاعد مجهزة لاستقبالهم مع وجود ميكروفون أمام كل مقعد، أمسك أحدهم الميكروفون من أمامه، ألقى السلام ثم بدأ الحديث:

— أبنائى و إخوتى فى البشرية، أنتم من خير ما أنجبهم المجتمع، لأنكم تبحثون عن التوبة مع أن بإمكانكم التغاضى عنها، إذا تاب كل ظالم توبة نصوحًا واعترف بأنه أخطأ في حق البعض.. ثم عمل على إصلاح أخطائه؛ فسنجد مجتمعًا متحابًا متسامحًا يحيا في سلام وسعادة، كل ما عليك هو أن تزيل غشاوة الشيطان التي على عينيك، الغشاوة التي تلون لك ماضيك وتقنعك بأن ما ارتكبته هو ما سيقدم على ارتكابه أي شخص في مكانك وأنه خيارك الوحيد، لا تترك نفسك إلى الشيطان، ساعدنا على مساعدتك، احك كل ما تخجل وتخاف أن تحكيه، ثقتك في أيدي مؤسسة عالمية أمينة ساعدت الكثير من الناس.. وهدفها الوصول إلى جميع من أخطأ ويود التوبة، كن صادقًا حتى نستطيع مساعدتك، وأرجو من الله أن يتقبل توبتنا جميعًا.

بعد انتهاء خطابه أمسك رجل دين آخر الميكروفون قائلًا:

— سوف نضع الخمسة أسماء في طبق ثم نختار عشوائيًا أحدها.. ومن تقع عليه القرعة سوف يبدأ الاعتراف، ومن ثم نعيد الكرة بعد كل اعتراف، سنستخدم الأسماء التي أعطيتمونا إياها ولا نهتم ما إذا كانت أسماؤكم حقيقية أم مستعارة.. فالهدف هو التكفير وليس الفضح، يوجد ميكروفونات داخل كل غرفة ليسمع باقي الضيوف اعترافات من عليه الدور حتى نقوى بعضنا بعضًا، ولا داعي للقلق.. فهذه الميكروفونات تغير صوت المتحدث، فلا يُعرف صوته الحقيقي بالنسبة إلى بقية الضيوف.

وضع الورق المكتوب عليه الأسماء الخمسة.. ثم قام بخلطها واختار اسمًا:

— دكتور محمد الشربيني.

عدل عادل فتحى طبيب النساء والولادة جلسته حين سماعه للاسم المستعار الذي سجل به بياناته وبدا عليه التوتر، وهذا ما لاحظه رجال الدين.. فاستطرد أحدهم قائلًا:

— دكتور محمد.. نريدك أن تسترخى.. نحن هنا لمساعدتك مهما كلفنا الأمر معنويًا أو ماديًا، اسرد كل ما يجثم على قلبك لتشعر بالارتياح.. ولنحدد ما سوف نعرضه عليك لمساعدتك، لقد قمنا بمساعدة قتلة ومغتصبين ولصوص.. لن يدهشنا أي شيء مما ستخبرنا به .

— شكرا لك، أرجو وأتمنى أن يكون كلامك صحيحًا.

هَمّ بالبدء في الحديث، ولكنه سمع صوت الرعد يدوي في الخارج، تبعه صوت خرير المطر.. كأن الطقس يريد مشاركة المعترفين أحزانهم ومشاعرهم، أخذ نفسًا عميقًا وبدأ بالسرد.

******

الفصل الثالث

لم تكن عائلتي فقيرة وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تعدّها ضمن الأغنياء أو المقتدرين، كنا أسرة مكونة من أب وأم وثلاثة أولاد، من الطبقة الوسطى ميسوري الحال، المفترض أن نستمتع بحياتنا وتعليمنا، فلم يكن ينقصنا شيء من أساسيات المعيشة، نأكل اللحم مرة في الأسبوع، نقضي أسبوع المصيف في الإسكندرية، لدى الأسرة سيارة واحدة قديمة ولكنها تفي بالغرض، ملابسنا دائمًا نظيفة بفضل أمي ولكنها رخيصة الثمن فقيرة الجودة، نقضي الصيف في لعب الكرة بمركز شباب في المنطقة، يعمل أبي في قسم المبيعات بإحدى شركات البسكوت المحلية ولا يعود إلى المنزل قبل الثامنة.. هذا غير ذهابه للعمل أيام السبت حتى يستطيع توفير هذه الحياة لأولاده. نحلم بغد أفضل ونأمل في تحسين دخلنا في المستقبل؛ لذلك كانت علاماتي وعلامات إخوتي في المدرسة عالية ودائمًا تصنيفنا من أوائل المنطقة في كل عام، كنا أسرة متوازنة ولم يعكر صفو حياتنا غير أقاربنا.. خالاتي وأولادهم.

يقال إن درجة غناك أو فقرك تقاس بالبيئة التي تحيا بداخلها، إذا كنت موظفًا حكوميًا وأهلك وعشيرتك عمال بناء سوف تعد الطرف الغني في العائلة، وستشعر بالرضا عن عملك وحياتك، نفس هذا الموظف الذي يشعر بالرضا عن عمله لو أصبحت عائلته ومعارفه رجال أعمال أو موظفين في شركات خاصة؛ سوف يشعر بالنقص وبالنقم على حياة الشقاء التي ابتلي بها، وكان المثال الثاني هو الذي يصف أسرتنا.. أمي هي الأخت الكبرى لأختين تصغراها بثلاث وأربع سنوات، تزوجت بأول من طلب يدها.. رجل طيب متوسط الحال يكافح ويعمل لتوفير لقمة العيش، ثم حالف الحظ الأخت الوسطى وتزوجت تاجر قماش شديد الثراء وكانت نقطة تحول في حياة العائلة.. فلأول مرة يحضر أبي وأمي عرسًا في أحد فنادق الخمسة نجوم، ولا داعي للحديث عن الشبكة الألماس والمهر والفيللا ذات الحديقة الواسعة، فهذه أمور تستطيع تخمينها بعد رؤية الفرح، تحامل أبي وأمي على نفسيهما وبذلا جهدًا للتغلب على فارق المستوى المادي والشعور بالسعادة لأجل العروسين.

بعد مرور عام على الزيجة جاءت خالتي لأختها الصغرى بعريس، أحد أصدقاء زوجها وفي نفس مستواه المادي، فكتب على أبي وأمي المرور بنفس ما مرّا به منذ عام مضى.. الفرح في الفندق، الشبكة، الفيللا والمهر. وما أثر في نفسية أمي هذه المرة وجعل فارق المستوى المادي بينها وبين أختيها ملحوظًا ولأول مرة؛ هو سؤال أختها الصغرى لها ـــ البريء في وجهة نظر أمي:

«هل هذا نفس الفستان الذي ارتديته في عرسي العام الماضي؟ عليك أن تعيشي حياتك فنحن لا نحب البخلاء»، وكان هذا السؤال أو هذه العبارة؛ بمثابة الرصاصة التي نجحت في الوصول إلى قلب أمي بعد نجاحها في تفادي العديد من الطلقات وإيهام نفسها أن فارق المستوى المادي بينها وبين أختيها لن يؤثر على حياتها، ولكنها تلقت الطلقة الأولى وبدأت برؤية ما كانت تغمض عينيها عنه.

******

عندما يتعدى عمرك الأربعين.. تستطيع التسليم والتصالح مع نفسك بما آلت إليه حياتك، حتى إن لم يكن ما توقعته أو عملت لأجله، لذلك لم تؤثر الفروق المادية في عائلتنا على أمي وأبي مثلما أثرت عليّ وعلى إخوتي. فأولاد خالاتي يذهبون إلى الأندية المعروفة ويسردون علينا مواقفهم مع الفتيات، بينما نذهب إلى مراكز الشباب، يعيشون بفيللا في المعادي بينما كانت شقتنا الصغيرة في حاره فقيرة، فنزورهم ولا يزوروننا؛ لأن خالتي لا تريد لأولادها أن يدخلوا مثل هذه الحاره القذرة، يدرسون في مدارس لغات باهظة المصاريف متعددة الأنشطة بين نادي الأفلام، نادي الروايات، مدرسة السباحة، نادي المسرح، بينما كنا في مدارس حكومية يزيد عدد الفصل فيها على سبعين طالبًا، ويتم طردك إذا لم يعجب المدرس بمنظرك أو كان غير رائق المزاج. أما عن الملابس فحدث ولا حرج، فهم دائمو الأناقة يرتدون جميع

الماركات المعروفة بينما كنا نتوارث الملابس، فينتقل الثوب من المسجد إليّ ثم لأخي الأوسط ثم أخي الصغير.

مرة من المرات ارتدى أخي الصغير معطفًا وقد كان لأحد أبناء خالتي، وحين بدأ يبلى أعطته خالتي لأمي وأخذه أخي الصغير، كان شديد السعادة بمعطفه الجديد في نظره ولا يرتديه إلا في المناسبات، ومن ضمن هذه المناسبات زيارتنا لمنزل خالتي. ارتدى أخي المعطف وكان شديد السعادة، ولكن سعادته تهشمت على صخرة الواقع، وكانت صخرة الواقع متمثلة في أولاد خالاتي الذين لاحظوا ارتداءه لمعطف أحدهم القديم.. لم يرحموه وبدؤوا بمناداته بالشحاذ والسارق، فبكى وذهب إلى أمي والدموع تملؤ عينيه، نظرت إليه خالتي قائلة: «لقد تبرعت بهذا المعطف لأمك، كان يجب ألا تتركك ترتديه أمام مالكه الأصلي.. سوف تصير كالشحاذين في نظرهم».

لم تفكر خالتي أن أخي يعتبر الذهاب إلى منزلهم مناسبة تستدعي ارتداء أفضل ما لديه، و لم يكن لديه أفضل من هذا المعطف القديم، عندما وجدت أمي ساكنة لا تتكلم حزنت على أخي وعلى دموعه، فذهبت إلى أولاد خالتي وانتقيت أكبرهم سنًا وبدأت بضربه والعراك معه.. فجاء الجميع ركضًا لـ «التسليك» بيننا، وبعد أن رآه والداه واطمأنا عليه؛ صفعني والده على وجهي صفعة أسقطتني أرضًا، وبدأت خالتي في الردح: «ألا يكفي أننا نتحملكم مع رائحتكم النتنة وملابسكم القديمة، عودوا إلى حارتكم ليس

لكم سواها».

لم تؤذني الصفعة، و لم تؤذني كلماتها الجارحة، ما آذاني وترك ثقبًا في قلبي يؤلمني مع كل نفس أتنفسه؛ هو رد فعل والديّ، لقد اعتذرا وأخذاني وإخوتي وانصرفنا، هل يمكنكم استيعاب الموقف؟ تم الاستهزاء بأخي ومناداته بالشحاذ والسارق، تم الاستهزاء بما كان يعتبره أفضل ملابسه وارتداه لأجلهم، تم طردنا من منزلهم، تم صفعي على وجهي، وفي النهاية يعتذر والدي وينصرفون وذيولهم بين أرجلهم. نعم.. تظن أنني سألقي باللوم على ضعف والدي ولكنك مخطئ، تظن أنني سألوم خالتي وزوجها ولكنك ستصبح مخطئا مرة أخرى، الوحيد الذي يجب أن يلام هو الفقر، الفقر هو ما يصنع الضعف ويعرضك للمهانة، لا تستطيع أن تعاملنا خالتي بهذه الطريقة لو كنا في نفس مستواها المادي.. كانت ستحترمنا كما تحترم خالتي الأخرى، لا ألوم أبي لأنه موظف من الطبقة المكافحة.. ليس خطأه، إنما هو خطأ المجتمع الذي لم يتح له فرصة في عمل أفضل، لقد قست عليه الحياة وقد لان لها.. ولكنني لن أغدوا مثله.. سوف أرتاد إحدى كليات القمة وسأحارب كالجندي في المعركة حتى أمتلك ما تمتلكه خالتي وزوجها.

******

أنهيت الثانوية العامه بنتيجة ٩٩,٥٪ مما ترك لي المجال لاختيار أي كلية أريدها، فوقع اختياري على أعلى الكليات طلبًا للدرجات وكانت كلية الطب، تخيلت نفسي جراحًا مشهورًا يطلب بالاسم

في جميع المستشفيات، وبالتأكيد امتد الحلم إلى القصور والسيارات الفارهة، فأجرُ الجراح المعروف لا يختلف كثيرًا عن أجور نجوم السينما.. سوف أثبت أمام خالاتي، أولاد خالاتي والعالم أجمع أن الصبى الصغير — الذى هو أنا — سوف يصبح مليونيرًا تفتح له الأبواب ويدعى إلى جميع المؤتمرات الطبية ويذكر اسمه في أي حديث عن الجراحة. كانت نظرتى إلى المستقبل شديدة التفاؤل والإشراق، وتعاملت مع فقر أسرتي كمرحلة مؤقتة في حياتي، ولكن بالتأكيد لو استطاع العلماء اختراع آلة السفر عبر الزمن وأتيحت لي الفرصة لرؤية مستقبلي.. لتغيرت نظرتي ولم أكن لأدخل كلية الطب وأضيع عشر سنوات من عمري في دراسة شديدة الصعوبة متصورًا أن العائد منها يستحق التضحية.

مرت سنوات الكلية ببطء ورتابة، كنت من أوائل الدفعة، ولم يكن يتخلل حياتي غير الدراسة وقليل من الصداقات السطحية مع بعض زملائي.. وفى كثير من الأحيان ينتابنى شعور أنهم يطلبون صداقتي لمساعدتهم في الدراسة. فقط في السنة الرابعة تعرفت إلى داليا في إحدى المحاضرات، وكانت من أهم أحداث حياتي.. فهي المرة الأولى التي أقع في الحب وأدخل في علاقة عاطفية.. كانت حبي الأول، أحببتها حب المراهقين الأفلاطوني فكنت أراها يوميا في الصباح ولا أستطيع النوم في المساء وأنا أفكر في وجهها، في ابتسامتها، في شعرها الأسود الناعم وهو منسدل على كتفيها، في عينيها شديدتي السواد، في بشرتها شديدة البياض، في طلاء

أظافرها أحمر اللون، في سروال الجينز الضيق، لقد كانت جميع تفاصيلها تعريفًا للجمال.. لو بحثوا عن فتاة يضعون صورتها بجانب كلمة جميلة في القاموس لما وجدوا أفضل منها، أضف إلى هذا أن أسرتها في نفس مستوانا المادى مما أراحني نفسيًا. دائمًا ما يشعرني الحديث معها باكتمال حياتي وعدم احتياجي لأي شيء، في بعض الأحيان كنت أسألها:

— أنت أجمل فتاة في العالم.. ألا يخطر ببالك الزواج من شاب ثري يستطيع توفير حياة مريحة؟ أي شاب يتمنى مجرد نظرة من عينيك.. أنا واثق مما أقول.

ضحكت وقتها بصوت عالٍ أذاب مشاعرى وارتجف له قلبي وقالت:

— إذا درت حول العالم لن أجد مثلك، أنت حبيبي وستظل بداخل قلبي إلى يوم مماتي، ماذا تريدني أن أفعل.. ليس بيدي حيلة إذا تركتني أو ابتعدت عني لسوف أموت عانسًا لأنني لن أتحمل أن أكون لشخص غيرك.

كنت أسمع هذا الكلام وأحلق في السماء من السعادة، أشهر أفلام هوليوود الرومانسية كـ «تيتانيك» و «قصة حب» و «كازابلانكا» لا يوجد فيها من أحب عشيقته كما أحببت داليا.. لقد عالجت كل جروح صباي.. لم أعد أكن أي حقد على الحياة فلقد أهدتني أرق وأجمل ما في الكون.. أصبح كل ما في حياتي جميلًا، أصبحت أستمتع بالدراسة لأنها ما سوف تؤهلني للعمل، وبالتالى لزواجي من داليا، أحب الكلية فهي مكان لقائي

بداليا، أعشق المواصلات.. فقد كنت أركب مع داليا يوميًا بعد انتهاء المحاضرات. كنت ساذجًا أصدق أن معشوقتي داليا سوف تنتظرني حتى أكوّن نفسي ولن تتزوج غيري، قمت بتصديق كل ما تنطق به كأنه من المصحف الشريف، كانت لي وكنت لها، إلى أن اتحدت جميع الأقدار لتفريقنا..

ولم تكن جميع الأقدار التي اتحدت لتفريقنا سوى عريس مقتدر طلب يدها ووافقت..

ضربت بكل كلامها ووعودها عرض الحائط مع أول فرصة للزواج من شخص مقتدر، أخبرتني بهذا النبأ السعيد في رسالة، فقد كنا وقتها في الصيف ولا توجد دراسة، طلبت مني أن أسامحها، طلبت مني أن أكون سعيدًا لأجلها إن كنت أحبها، طلبت مني عدم محاولة الوصول إليها. بالتأكيد بدأت محاولة الوصول إليها فلم أستطع تصديق ما قرأته عيناي وتمنيت لو أنها دعابة ثقيلة.. كيف تنسى ما تحيا لأجله، كيف تنسى من اعتبرتها هدفك في الحياة، اتصلت بها عشرات المرات وأرسلت عشرات الرسائل ولكن بدون إجابة، سألت أصدقاء مشتركين وأكدوا خبر خطبتها، طيب القلب أكد لي الخبر بحزن وواساني بأني أستحق من هي أفضل، الخبيث أو الحاقد أكد لي الخبر مع كثير من التغزل في خطيبها مما زاد من حرقة قلبي. ظللت في محاولات الاتصال بها حتى أتتني مكالمة من أخيها، هددني وتوعدني بعدم الاقتراب من أخته وأخبرني أن كتب كتابها الأسبوع المقبل، ابتلعت ما تبقى لي من كرامة وأحسست بجمر

من نار يمر من فمي إلى أمعائي وتمنيت الموت.. ولكنني توقفت عن ملاحقة من أحببتها من كل قلبي يومًا ما، وبدأت مرحلة اكتئابي في صمت.

******

عند طلاق أو افتراق اثنين من المشاهير تتحدث الصحافة والتليفزيون، وتتم لقاءات ومداخلات تليفونية مع الطرفين للاستفسار عن أسباب الانفصال، أنظر إليهم وهم يتحدثون عن أسباب الانفصال وأستشعر الكذب والتجارة بالعلاقة وتدنيس الحب، يوجد من يترك زوجته لإقامته علاقة مع مغنية صغيرة السن، ويؤكد ندمه وحبه لزوجته ولكن صديقته الجديدة تحتاجه، يوجد من تترك زوجها ثم تعود إليه بدون سبب؛ مؤكدة أنها احتاجت فترة للتفكير في علاقتهما، يوجد من تزوجوا لبضعة أشهر وأقاموا عرسًا ضخما ثم حدث الطلاق، وأكد الطرفان أن السبب هو الملل، أشفق عليهم تارة لعدم إحساسهم بالحب.. وأحقد عليهم تارة أخرى لتجنبهم شعور حرقة الفراق. دائمًا ما يجد المشاهير من يتحدث عن انتهاء علاقتهم فيخفف عنهم.. وإن كنت أشك أن جميع علاقاتهم تجارية أو منفعة مشتركة لها مدة زمنية محددة، وليست حبًا يمسك بيدك إلى آخر يوم في عمرك.. عانيت وحدي، لم يكن لدي أصدقاء مقربون أستطيع البكاء على أكتافهم، أستيقظ فأجد الدموع تملؤ عيني ووجهي؛ فلا أعلم هل هي دموع البارحة أم أنني أبكي في منامي، أستيقظ غير قادر على الحراك كأن كل

عضو في جسدي يزن طنًا، كلما تقع عيناي على مكان كنا نجلس به تضيق حنجرتي ولا يصبح في مقدرتي التنفس.. كالغريق الذي تبحث رئتاه عن الهواء فلا يجده؛ فيضيق قفصه الصدري إلى أن تأتيه الرحمة ويموت مختنقًا، ولكن في حالتي لا توجد رحمة.. فأنا أعاني معاناة المختنق ثم أعود للتنفس حتى أعاني مرة أخرى، استمرت معاناتي شهور الصيف، ثم بدأت الكلية فانهمكت في دراستي وبدأت أولى مراحل النسيان.

صحيح أنني نسيت داليا في النهاية، ولكنها تركت بداخلي جرحًا لا يندمل، جزء من الجرح هو تَرْكها لي، والجزء الآخر تَرْكها لي للزواج من شاب مقتدر، لقد نكأت على جرحي القديم.. كنت أشعر بفقري بسبب خالاتي.. الآن أصبحت أشعر به لأنه من أخذ حبيبتي وأعطاها لغيري، لقد دعست داليا على جرحي القديم بعد أن كانت من تعالجه.. كأن تذهب إلى طبيب لمعالجة جرح لديك فيعطيك دواءً في الجلسة الأولى، ثم تأتي الجلسة الثانية ويقوم بغرس إحدى أدواته الحادة في الجرح ليضاعفه ثم يتركك ويرحل. وهكذا أيقنت أن المال هو الوحيد القادر على إيهاب السعادة.. ابتعدت عن الفتيات وجميع إغراءات الحياة، وعدت إلى الهدف الذي أنستني إياه داليا لبضعة أشهر.. في لحظة نشوة؛ شعرت أن الحب يغني عن المال، اتضح أن الحب يتغذى على المال.

******

أنهيت دراستي بتقدير امتياز وترتيب الرابع على الدفعة،

عُرض عليّ أن أعمل معيدًا في الكلية ولكنني رفضت، لم تكن طموحاتي.. لا أريد الاستقرار والوظيفة، لن أقبل بما يقال عنهم مستورة.. أريد رغد العيش. بدأت الماجيستير وأنا أعمل في أحد المستشفيات، أنهيتها وبدأت الدكتوراة.. واخترت أن أتخصص في النساء والتوليد، حصلت عليها من أول مرة.. وكانت عن تخصيب النساء غير القادرات على الإنجاب، ولتميزي في هذا المجال؛ أتاني عرض مغرٍ من مستشفى كبير في قسم التخصيب.

كنت شديد الحماس لعملي الجديد في البداية، لمحة من المستقبل المشرق الذي أحلم به بدأت في الظهور، كظمآن تم وضع نقطة مياه واحدة في فمه لا تروي عطشه الشديد.. فلم يعلم هل هي مياه أم تهيؤات، كان الراتب عاليًا.. أعلى من راتب أبي الذي يعمل منذ ثلاثين عامًا، ولكن المشكلة أني لم أكن أنظر إلى بداية سلم العمل، كنت أنظر إلى الملايين وأنتظر قدومها.

بعد العمل بعدة أشهر؛ بدأ حماسي يخبو عندما علمت الزيادة السنوية للراتب، بدأت أحسب ما سأجنيه إن استمررت على هذه الوتيرة وكان شديد البعد عن أحلامي، فبدأت أتعامل مع المستشفى على أنها مرحلة مؤقتة إلى أن أفتتح عيادتي الخاصة التي ستحقق لي ما أتمناه. سألت عن القروض من البنوك ولم أستطع الحصول على قرض بدون ضامن، بحثت عمن يشاركني ولم تسعفني ميزانيتي الضئيلة في وجود شريك، فكرت أن أدخر من راتبي ولكنني سأحتاج إلى خمس وعشرين سنة حتى يصبح معي

المبلغ المبدئي لفتح العيادة، ناهيك عن شراء شقة وسيارة، علمت أن ما رأيته في بداية عملي لم يكن سوى سراب على أرض صلبة في صحراء شديدة الحرارة.

بدأ الاكتئاب يغزوني، وشعرت أنني قد حُكم عليّ بالشقاء وبالتفريق بيني وبين حلمي إلى الأبد.. ولكنني لاحظت شيئًا، عملاء المستشفى الذي أعمل به من الطبقة الثرية، الطبقة التي تجلس على الملايين، الطبقة التي إن خسرت بضعة ملايين من ثروتها لن تتأثر حياتهم، فلماذا لا تخسر واحدة من العائلات فاحشة الثراء جزءًا صغيرًا من تلك الثروة لن يؤثر على حياتها بجميع الأحوال، وبهذا الجزء الصغير أحقق جميع أحلامي، سرقة؟ لا ليست سرقة.. إنما إعادة توزيع للثروات، بعض الناس لديهم أكثر مما يحتاجون، لديهم ما يكفي أجيالًا قادمة وآخرون لا يملكون قوت يومهم.

عاد إليّ حماس العمل وبدأت التفكير في الطريقة التي سوف أنقل بها الأموال من شخص لديه أكثر مما يكفيه إلى شخص لا يستطيع افتتاح عيادته الخاصة، بدأت أدرس جميع الاحتمالات وأضع الكثير من الخطط، حاولت كثيرًا البحث عن طريقة تمكنني من الحصول على ما أريد من أموال بدون التسبب بأذى لأحد غير السرقة ولكنني فشلت، وبدأ صراع يعتمل بداخل رأسي بين ملَك الخير وملَك الشر كأفلام الرسوم المتحركة، فيقول ملك الخير:

ـــ لا تريد أن تعيش وتطعم أولادك من مال حرام.

يسكته ملك الشر في سرعة:

ـــ أولًا ليس لديه أولاد، ثانيًا من قال إنه حرام؟ هل حلال أن يعيش البعض غارقين في الأموال وآخرون لا يجدون ما يأكلون؟ أي حرام وحلال هذا الذي تتكلم عنه.. أهو الحلال الذي جعل أولاد خالاتك يتقلبون في النعيم وأنتم في جوف الفقر.. أم الحرام الذي جعل الفتاة التي نبض قلبك من أجلها تتركك مع أول ثري ينظر إليها؟ قبل التفكير في الحرام والحلال يجب النظر إلى الواقع الذي نحيا فيه؛ لأن كل شيء قابل للتغيير على حسب العصر فنحن لسنا بعبيدٍ ننفذ بدون تفكير، ويجب عليك العلم أن من سوف تأخذ جزءًا صغيرا من ثروته قد أذى أحد الفقراء في يوم من الأيام كما تم إيذاؤك من خالتك وأولادها وهذه هي عدالة السماء.

بالتأكيد معه حق، ورويدًا بدأ ملك الخير في الاختفاء.. كأنه شعر بميلي للطرف الآخر. ليس خطئي، عندما أكون من الأوائل في الطب وأحصل على الماجيستير ثم الدكتوراة من المرة الأولى ولا أستطيع افتتاح عيادة خاصة؛ إذًا هناك خطأ في النظام، جميع الأثرياء يشاركون في هذا الخطأ وأحدهم سوف يدفع الثمن، أولاد الدكاترة يولدون بعيادة خاصة، بعضهم يدرس بالكليات الخاصة لأن مجموعه في الثانوية العامة لم يؤهله لدخول كلية طب حكومية، وفى النهاية يصبحون أفضل حالًا ممن أمضى عمره في الدراسة وتفوق بها. وضعت الكثير من الخطط حتى توصلت إلى هدفي.. ولكن كان هناك مشكلة واحدة، الضرر الذي سوف يقع على الأسرة ليس ماديًا فقط، إنه ضرر سيرافقهم إلى آخر

العمر، ولكن ليس أمامي خيار، لقد كنت أنفذ كلمات مطرب الراب الأمريكي فيفتي سنت 50Cent «عش غنيًا أو مت وأنت تحاول» بحذافيرها، هذا رهاني الأخير مع الحياة.. فإما العيش كما أريد أو الذهاب إلى الجحيم.

******

جميع المجرمين في التاريخ كانوا شديدي الذكاء، الجميع أجمع أنهم إذا استخدموا ذكاءهم في أي من المجالات لتفوقوا به، أدولف هتلر مجرم حرب ولكنه عقلية حربية تدرس، كان رسامًا في صباه.. ما الذي يدفع رسامًا إلى الحلم بغزو العالم؟ إنه خطأ المجتمع، نفس الخطأ الذي وقع فيه المجتمع من حولي؛ فجعلني أتحول من طبيب ناجح إلى باحث عن الثروة بطريقة غير شرعية. وضعت خطتي، وبقي أن أختار العائلة سعيدة الحظ التي ستختبر هذه الخطة، أمسكت بورقة وقلم وكتبت المواصفات الواجب توافرها:

١ــ فاحشة الثراء ويفضل أن تكون مشهورة.

٢ــ يزورون المستشفى لتخصيب وتلقيح الزوجة وحملها على الإنجاب.

٣ــ أن يكون والد الزوجة ثريًا وعلى قيد الحياة.

٤ــ يحبون الحياة بعيدين عن التدين.

أربع صفات يجب توافرها في العائلة المنتظرة، لست في عجلة من أمري أستطيع الانتظار، عندما تخطط لأكبر صفقة في حياتك يجب أخذ الحذر وعدم الاستعجال، أخذت أدرس جميع الحالات

التي تمر من أمامي، استغرقني الأمر ستة أشهر حتى وجدت ضالتي.

كانت الأسرة مثالية لخطتي، الزوج في الثلاثين والزوجة في الخامسة والعشرين، متزوجان منذ ثلاث سنوات ولم يوفقا في الإنجاب. ما جعل هذه الأسرة مثالية هو والد الزوجة.. رجل أعمال مشهور، معروف بطيبته وكرمه الشديد، من النوع الذي ينشيء مستشفى خيريًا ولكن الخمر لا تفارق شفتيه، يحضر جميع جلسات التخصيب مع ابنته.. متلهف على الحفيد كلهفة الشاب للزواج، كما أخبرتكم هي العائلة النموذجية لما أنتويه.

بدأت خطتي بحذر، وبالتأكيد نجحت في تنفيذها؛ فقد كنت طبيبهم المعالج وبالتالي أنا المشرف على جميع الخطوات، لو علم ابن سينا بما أقدمت عليه لترك الطب وتفرغ للدعاء على الجنس البشري بالهلاك، المهم أنني أتممت الجزء الأول بنجاح.. ولم يكن أمامي غير الانتظار لتنفيذ الشق الآخر. تابعت الحمل حتى أنجبت الزوجة فتاة جميلة أطلقوا عليها سلمى، سعدت العائلة بالمولودة الجديدة وشكروني كثيرًا لنجاح عملية التخصيب وأهدوني ساعة قيمة، لو يعلمون من الذي يشكرون لانتحروا من شدة إحساسهم بالخجل. رأيت الفرحة في أعين الأب والأم وخصوصًا الجد، كلما رأيت سعادة الجد بالحفيد زادت ثقتي بنجاح الخطة وشعرت بقربي من هدفي، سوف أنتظر حتى تبلغ الفتاة الصغيرة ستة أشهر.. ثم أفجر القنبلة وأحصد غنيمتي، لست في عجلة من أمري يجب الانتظار حتى يتم التعلق بالمولود.

******

«تفضل بالدخول، أستاذ شوقي في انتظارك»، كانت هذه سكرتيرة أستاذ شوقي رجل الأعمال المعروف وجد سلمى — الفتاة التي تمت ولادتها منذ ستة أشهر. دلفت إلى مكتبه شديد الفخامة واستقبلني استقبالاً حاراً؛ فلا يزال يذكر فضلي عليهم في تخصيب ابنته ومساعدتها على الحمل، بعد انتهاء السلامات جلسنا وبدأ حديثه بسؤالي:

— دكتور تعلم أنك صاحب فضل علينا.. كيف لي أن أخدمك؟

كنت قد أعددت ما سوف أقوله مسبقًا.. فلم أضع أي وقت ودخلت في الموضوع مباشرة:

— أستاذ شوقي، سوف تجد صعوبة في تقبل كلامي.. ولكن لا يوجد ما يمكننا من تغيير الماضي، سعادة ابنتك وحفيدتك مرتبطين بتقبل ما سوف أعرضه عليك..

بدأ القلق يغزو وجهه وانعقد حاجباه وأجاب:

— أشعر في صوتك بنبرة ابتزاز، من الواضح أنك لا تعلم مع من تتكلم، لا يوجد مخلوق واحد في الكون يمكنه أن يهدد سعادة ابنتي وخصوصاً حفيدتي..

بدا الأمر كأننا في معركة كلامية.. فاعتدلت في جلستي ورددت عليه:

— أستاذ شوقي.. أنت لا تعلم ما في جعبتي حتى تتحدث بهذه الثقة، اسمع ما لدي جيداً وسوف تقتنع بوجود ما يهدد سعادة ابنتك ولكن في استطاعتك منع وقوعه.

وضع يديه أسفل ذقنه في وضعية المستمع فاستطردت قائلاً:

— تعلم جيداً أني الطبيب الذي قام بتخصيب وتلقيح ابنتك حتى تستطيع الإنجاب، لقد قمت بتخصيبها وتلقيحها على أكمل وجه حتى حملت وأنجبت فتاة جميلة، كي لا أطيل عليك.. أودّ إخبارك أنني وضعت سائلي المنوي بداخل ابنتك وليس السائل المنوي الخاص بزوجها، بما يعني أنني والد حفيدتك سلمى.

انتظرت حتى أرى وقع كلماتي عليه ولم يخب ظني، امتقع وجهه، تسابقت أنفاسه وصرخ:

— اخرج من مكتبي أيها الكاذب، اخرج قبل أن أتصل بالشرطة وأخبرهم عن هذه الزيارة التي ستجعلني أزج بك في السجن إلى آخر يوم في عمرك..

توقف حتى يلتقط أنفاسه.. فانتهزت الفرصة للحديث:

— أستاذ شوقي، ما أخبرتك به صحيح مئة بالمئة ولا يمكن تغييره أو الرجوع عنه وسوف أعطيك الإثباتات، إنها جريمة إذا عرفت سوف تجعلني أخسر رخصة مزاولتي للطب وسوف يزج بي في السجن بضع سنوات، ولكن انظر إلى الطرف الآخر، انظر إلى ابنتك وتخيل الفضيحة التي سوف تلاحقها، تخيل حفيدتك عندما يبدأ الأولاد في مناداتها بابنة الحرام، لا تزال..

قاطعني صارخاً:

— اخرس، ما هي الفضيحة التي تتحدث عنها؟ لن تصبح ابنتي غير ضحية ذئب بشري في هيئة طبيب..

— وهل تظن أنني سأعترف بأنني وضعت سائلي المنوي بداخل ابنتك من دون علمها؟ ستكون واهمًا، سأخبر الصحافه أن ابنتك أغوتني وأوقعتني معها في علاقة آثمة نتج عنها الحمل في سلمى، أنت تعلم جيدًا أن موضوعًا كهذا سيمثل سبقًا صحفيًا لأي جريدة، ابنة رجل الأعمال المعروف في أحضان طبيبها.. ضربة الشهرة كما يقولون، ولن أتوقف عند هذا الحد.. سأطالب بحقي في رؤية ابنتي؛ بل وحقي في الحضانة.

— أيها الداعر الواطي.. لم تترك لي أي سبيل غير قتلك.

أتبع قوله بإخراج مسدس من درج مكتبه ووجهه إلى صدري..

فتداركته قبل الإقدام على أي عمل أحمق قائلًا:

— هل تظن أن قتلي سوف يحل المشكلة؟ كل الإثباتات بأني والد سلمى واعترافي بالعلاقة التي تمت بيني وبين ابنتك مسجلة ومتروكة مع محام سوف يظهرها إن لم أتصل به الليلة، قتلي سوف يسبب لك ولأسرتك الكوابيس.

أنزل يده وبدأ يدخل في مرحلة اليأس فبدأت تشجيعه:

— في إمكانك المحافظة على سمعة وسعادة ابنتك، أضف إليهما مستقبل حفيدتك، الأمر ليس صعبًا، لا يوجد من يعلم بهذا الأمر غيري وغيرك، ولا يجب أن يعلم أحد آخر، ستعيش سلمى حياة سوية في أحضان أب وأم محبين، تخيّل رد فعل زوج ابنتك بعد علمه بأن سلمى ليست ابنته، هل سيطلق ابنتك؟ هل ستظل العلاقة بينهما حميمية كسابق عهدها؟ هل سيكون بإمكانه تقبل سلمى؟

لماذا تصر على إدخال ابنتك في دوامة ليس لها نهاية.. هل ترضى أن تصبح ابنتك حديث الساعة؟ هل تود أن تسمع الناس تتساءل: هل أقامت علاقة مع الطبيب أم لا؟ دعنا ننهي هذه القصة بيننا لضمان الاستقرار لعائلتك.

بصوت مبحوح لا يكاد يسمع أجاب:

— ماذا تريد؟

— خمسة ملايين جنيه، إنه لمبلغ بخس بالنسبة لشخص مثلك.

— ليتك أخذت النقود أو سرقتها بدون إقحام ابنتي وحفيدتي في الموضوع.

— وهل كنت ستعطيني ربع هذا المبلغ بدون ابتزازك بأمر حقيقي؟ من ذا الذي يجرؤ على السرقة من شوقى باشا. أريد النقود بعد أسبوع من اليوم، تركت هذا الأسبوع لسببين، أولًا لتستطيع تحضير المبلغ نقدًا، ثانيًا حتى تجري فحص الـ «دى إن أيه» DNA، وتتأكد بنفسك من صدق كلامي مع أني أرى في تعبيرات وجهك تصديقك للأمر.. ولكن هناك دائمًا الأمل الصغير بداخل كل منا وهذا حقك.

أخرجت علبة مختبر زجاجية مليئة بالدماء من جيبي، وضعتها أمامه ثم أخبرته:

— هذه عينة من دمائي، احتفظ بها لتؤكد لك أني الأب البيولوجي لسلمى عند عمل الـ «دي إن إيه» DNA، أراك بعد أسبوع وأرجو أن يكون المبلغ جاهزًا.

استدرت للمغادرة فسألني:

ـــ وما الذي يضمن عدم عودتك لابتزازي بعد حصولك على المبلغ؟

ابتسمت قائلًا:

ـــ شقة وسيارة وافتتاح عيادتي الخاصة، في النهاية أنا طبيب ناجح ولي الكثير من زبائني، هذا المبلغ كفيل بتحقيق كل أحلامي ولن أحتاج شيئًا آخر.

******

أنهيت ورديتي في المستشفى وجلست أحتسي بعض النسكافيه الساخن في غرفة الاستراحة، وإذا بالباب يفتح وتدخل الشرطة، يضعون الأصفاد بين يدي وأرى أستاذ فتحي وراءهم؛ فأصيح قائلًا:

ـــ شوقي أيها الخائن.. هل تظن أنك ستنجو، سأفضح ابنتك وأطالب بحقي في الحضانة.

فيجيبني في برود كأن الأمر لا يعنيه:

ـــ وجدنا المحامي الذي تركت المستندات والاعتراف معه وقتلناه، لا يبقى غير قتلك ويصبح الأمر نسيًا منسيًا، اقتلوه..

يرفع أحد الضباط المسدس في وجهي وأنا غير مصدق لما يحدث..

هل من الممكن أن تقتلني الشرطة بدون محاكمة وفي مكان عملي؟

هل فعلًا وجدوا المحامي الذي أخفيت المستندات والاعتراف معه؟

قطع هواجسي صوت طلق ناري.. ثم الاستيقاظ على سريري في

منتصف الليل غارقًا في العرق.. تكاد تنقطع أنفاسي من بشاعة الكابوس، كانت هذه هي الليلة الرابعة على التوالي التي تهاجمني فيها الكوابيس، أبشع أسبوع قضيته في حياتي.. ليلًا أنا فريسة للكوابيس.. نهارًا أتلفت حولي طوال الوقت منتظرًا القبض على أو قتلي، كنت في طريقي لفقدان قواي العقلية، وبدأت التفكير في العدول عن كل شيء والهرب، ولكني تمسكت برهاني ووضعت نفسي أمام الطلقة التي أطلقتها ولا سبيل لإعادتها.

في النهاية.. انتهى الأسبوع وذهبت لمقابلة أستاذ شوقي في مكتبه لاستلام المبلغ المتفق عليه. اتصلت به على هاتفه للتأكد من وجود المبلغ وأعطاني الضوء الأخضر للحضور. قابلتني السكرتيرة نفسها وأدخلتني إلى مكتبه، ومن الوهلة الأولى شعرت بالتوتر في الجو بيننا؛ فلم أرد إضاعة الوقت ودخلت في الموضوع مباشرة:

ـــ أين المتفق عليه.. علمت من أحد أصدقائي أنك أجريت اختبار الـ«دي إن إيه» DNA لسلمى، أنا سعيد لأنك أجريته حتى تصبح واثقًا من أنني لا أكذب.

أخرج خمس حقائب سامسونيت من تحت المكتب ووضعها أمامي قائلًا:

ـــ تفضل المبلغ كاملًا أمامك.

أنهى جملته وفتح واحدة من الحقائب؛ فرأيت النقود المصفوفة فئة المئتي جنيه، وتطلعت إلى الحقائب والنقود كقروي ساذج أول مرة يرى فيها جهاز تليفزيون، كان منظرها شديد الإغراء وتمنيت لو أخذتها معي، ولكنني ضبطت مشاعري وقررت الالتزام بالخطة التي

وضعتها مسبقًا، أخرجت ورقة من جيبي ووضعتها أمامه:

ـــ لن آخذ المبلغ الآن، هذه الورقة مكتوب بداخلها أرقام حساباتي في خمسة بنوك مختلفة، أريد مليونًا في كل حساب وأريد أن يتم الإيداع اليوم.

صمت قليلًا وضيق حدقتي عينيه ثم أجاب:

ـــ لك هذا، ولكني أقسم بحياتي وحياة كل من أحببت في هذه الدنيا، إن أخلفت ما اتفقنا عليه وأفشيت السر، إن اعتقدت أنه من الممكن أن تطالب في يوم من الأيام بالحضانة على ابنتك أو بالاعتراف بك كوالدها.. اعلم أنك سوف ستمضي ما تبقى لك من عمر تحت التعذيب، لن أقتلك أو أزج بك في السجن، عذاب حتى الموت سيكون مصيرك الوحيد.

ـــ أفهم هذا تمامًا وأقدره، لا أحب من يخلف بوعده أيضًا، أودع النقود واعتبر أن هذا السر اختفى إلى الأبد حتى بعد مماتك.

ـــ حتى بعد مماتي سأوكل من يقضي عليك إذا فكرت في المطالبة بابنتك أو حتى رؤيتها.

ـــ حقك يا باشا، سأنصرف الآن وسأتفقد حساباتي في البنوك في الرابعة.

انصرفت وذهبت إلى منزلي أعد الساعات حتى الرابعة، طلبت بعض السندويتشات من مطعم قريب وأعددت كوبًا من الشاي وجلست في الشرفة، لم أرد أخذ النقود نقدًا، فمن السهل على أي شخص انتشالها؛ خصوصًا أنها خمس حقائب، الخوف دفعني إلى

التفكير في جميع الاحتمالات وأحد المخاوف كان أن يتفق شوقى مع شخص ينتظرني أسفل مكتبه؛ فيثبتني ويأخذ الشنط، أعلم أنه احتمال بعيد ولكن الخوف يدفعك للتفكير في أصغر التفاصيل.

تركت المنزل في الرابعة وعشر دقائق وذهبت إلى أحد البنوك التي كتبتها لفتحي في الورقة، دلفت إلى البنك وأنا أنتظر اللحظة الفارقة، أخذت رقمًا لرؤية موظف خدمة العملاء وجلست أنتظر. صوت ضربات قلبي أعلى من موسيقى ميتال Metal موصولة بسماعات ألف وات، نادى الموظف على رقمي فتوقف قلبي للحظة ثم قرر متابعة عمله، أعطيت الموظف بطاقتي وسألته عن الرصيد، أخذ يكتب بعض البيانات على الشاشة أمامه ثم..

«سوف يتم خصم عشرين جنيهًا مصاريف فتح حساب وعشرة أخرى للكارت الذي سوف تتسلمه، مليون جنيه الرصيد الحالي قبل الخصم».

شعور أن تكون جالسًا تحلم بالفتاة التي تحبها منذ سبع سنوات وهي لا تعرف اسمك ولا تدري بوجودك، ثم تفاجأ بها أمامك واضعة شفتيها على شفتيك في قبلة طويلة ثم تخبرك بمقدار اشتياقها إليك، شيء لا يحدث إلا في الأفلام الأمريكية الرديئة، ولكنه حدث معي عند سماعي لفظ مليون جنيه من فم الموظف، وجلت لبضع ثوانٍ وقد بدأ الموظف في شرح الفوائد البنكية على الشهادات والودائع، كروت الائتمان، قروض بضمان المبلغ ولكننى أخذت بطاقتي وهرعت خارج البنك أشعر كأنني طائر وقد هرب لتوه

من القفص، ذهبت إلى البنك الثاني ثم الثالث والرابع والخامس، تأكدت من وجود المبلغ كاملًا في جميع الحسابات. لا شقاء بعد اليوم.. ملك سوف أعيش.. سأقدم استقالتي من عملي في هذه المستشفى التي لا تستحقني وأبدأ حياتي، الآن فقط تمت ولادتي في هذه الدنيا ولن يوجد ما يزعجني بعد اليوم.

******

ستة أشهر مضت على تسلمي الملايين الخمسة، رتبت أولوياتي في صرف المبلغ؛ فبدأت بالعيادة.. أجرت شقة في بناية معروفة، جهزتها بأحدث الأجهزة وبعثت إلى جميع زبائني بافتتاح عيادتي الخاصة، وفي غضون وقت قصير ازدحمت بالمرضى وبدأت أرى ثمار النقود المستثمرة فيها. بعد تأكدي من نجاح العيادة ابتعت شقة في الزمالك تطل على النيل كما حلمت دائمًا، ثم جاء دور السيارة المرسيدس والشاليه في الساحل، باختصار حققت كل ما حلمت به وكل ما يعمل أي شخص على تحقيقه. بعد تغير حياتي أتى الوقت المناسب للتبجح بما أملك، أقمت الكثير من العزومات لخالاتي وأولادهم وجميع أصدقائي ومعارفي، وفي جميع العزائم كنت أحرص على رؤيتهم للسيارة والحديث عن الشاليه في الساحل الشمالي والعيادة بالتأكيد. بحثت أيضًا عن داليا صديقتي من أيام الجامعة، ولكنني علمت أنها انتقلت للعيش في السعودية، سعدت بهذا الخبر وخمنت أنها سافرت بسبب طرد زوجها من عمله وعدم استطاعته إيجاد عمل آخر؛ فاضطر للتغرب بحثًا عن

لقمة العيش، فقط هذا السيناريو تأليف وإخراج عقلي أراحني وأخمد ناري.

مرت الأيام وبدأت أعتاد على حياتي الجديدة كما يعتاد الزوج على زوجته، فقبل الزواج يحلم الرجل بمجرد النظر إلى وجه خطيبته، وبعد الزواج سوف تغير ملابسها أمامه ولن يلاحظ، هذا ما بدأ يحدث معي، فبدأت بالاعتياد على كل ما كان يبهرني في البداية، أصبح الملل يتخلل حياتي بعد أن ظننت أنني وصلت إلى الكمال، شيء آخر بدأ يتخللها ولم أرد الاعتراف به في بادئ الأمر.

في إحدى الليالي أنهيت عملي وركبت المترو في طريق عودتي إذ كانت سيارتي في الصيانة، كان شديد الازدحام وأحسست بالاختناق، وبدأت أعد المحطات الباقية على نزولي. شرعت أتأمل الراكبين من حولي، هذا جندي في الجيش.. توجد شرطة واحدة على كتفي بذلته العسكرية البالية.. ولكن بالتأكيد عمره لا يقل عن أربعين عامًا، التجاعيد في وجهه أكبر دليل على عمره المتقدم وعلى حياة شديدة الخشونة، راتب الجنود لا يتعدى المئتي جنيه شهريًا.. أحيانًا يتحمل الشباب الراتب القليل أملًا في الترقية إلى ضباط، ولكن يبدو أن القطار لم يتوقف لترقية هذا الرجل، ما الذي يجعل رجلًا في مثل عمره يظل جنديًا بشرطة واحدة؟

بجانبه تجلس امرأة عجوز شديدة النحافة.. حتى لتشعر كأنك سترى عظامها إذا دققت النظر، على حجرها وضعت كيسًا مليئًا بألعاب أطفال رخيصة الثمن على أمل بيع أي منها، تسأل

الجالسين بجانبها من الحين للآخر «حاجة لله»، سيدة في مثل عمرها يجب أن تكون متقاعدة تدلل أحفادها، كيف انتهى بها الحال إلى هذا المطاف.

خلفهم جلس شاب واقع في سبات عميق مع فم منفتح لآخره، كان يحمل حقيبتين شفافتين.. الأولى بها مجموعة متنوعة من كروت شحن وفواحات وولاعات والكثير من المنتجات الصينية أحادية الاستعمال التي تباع برخص التراب، فتتعجب كيف يستطيع البائع أن يكسب من ورائها، الحقيبة الأخرى تحمل مجموعة من الكتب.. دققت النظر وعلى الفور علمت ماهيتها، إنها كتب طب.. كنت فقيرًا أيام الجامعة، ولكني لم أضطر يومًا للعمل مع الدراسة.

هل وصل الحال ببعض الناس إلى هذا المستوى؟ أخذت أتجول بنظري بين الكثير من الراكبين في المترو، وكان ما يجمع بينهم هو الفقر وقذارة الملابس والهم البادي على الوجوه كالشمس في منتصف النهار، وضعف الأجسام وبطء الحركة، كنت شديد القرب من حالتهم في يوم ما.. هل الحل أن يسرق أو ينصب كل شخص فقير على آخر غني لتنصلح أحواله؟ هل إعادة توزيع الأموال بين الناس هو الحل؟ كان هذا رأي الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ولكنه فشل فشلًا ذريعا وأدخل بلاده في متاهات من بعده، ما العمل.. لقد استطعت استدراك أحد الأثرياء لإعطائي ما يدخل الرفاهية في حياتي، ولكن إذا بدأ الجميع بهذا السيناريو ستصبح حربًا أهلية، إذا تمت سرقتي من قبل أحد الفقراء لن

أتقبل ما حدث وأقر بأنه إعادة توزيع للثروات، شعرت بغصة في حلقي وتلقيت الصدمة التي كنت أتفاداها وأنكرها، أنني كسيارة مسرعة؛ فوجئت بطفل يجري أمامها ولا يوجد مجال لتفاديه، لم أصل إلى الكمال الذي كنت أنشده بسبب الملل.. إنه الندم.. الندم الذي بدأ يتسلل بداخلي كالسرطان الذي يتم اكتشافه بعد فوات الأوان.

******

مرت الأيام وقد تصالحت مع نفسي وقلت إن الله غفور رحيم، لم يبق غير ثغرة صغيرة تذكرني كل فترة بما فعلته وأملت أن تلتئم مع الأيام، حتى جاء اليوم الذي تم خرق هذه الثغرة وإحالتها إلى حفرة عميقة، كنت جالسًا في العيادة أنتظر المريض القادم بعد ما أعطيت الضوء الأخضر للسكرتيرة بإدخاله، كان أب يحمل فتاة صغيرة عمرها لا يتعدى عامًا ووراءه زوجته:

ـــ مرحبا دكتور اشتقنا إليك كثيرًا، نعلم أننا مقصرون في حقك.. فزيارة واحدة في العام للرجل الذي أعاد إلينا الأمل في الحياة بعد أن كنا قد فقدناه تعتبر قلة ذوق.

وذهب مع الريح أي اعتقاد كنت أكنه بالتصالح مع نفسي، شعرت برعشة في يدي، ثقل لساني فلم أستطع التفوه بأي شيء، لم تقو قدماي على حملي فلم أقف لمصافحتهما، عندما لم أقدم على أي حركة قالت الزوجة:

ـــ دكتور.. لن تصدق النظرة التي تعتلي عينيك الآن، هل رؤية

سلمى بعد ما أتمت عامها الأول تدهشك إلى هذا الحد؟!

استجمعت ما بقي لي من قوة وخرج الصوت مبحوحًا من حنجرتي:

ــ مرحبا بكم، في الحقيقه نعم.. عندما أرى ما كنا نعتقده مستحيلًا منذ عام فقط يكبر أمامنا، إنها معجزة.

ــ الفضل بعد الله يعود إليك يا دكتور، لقد أردنا زيارتك بعد عيد ميلادها الأول مباشرة حتى تكون شاهدًا على نموها ولن نقطع هذه العادة بإذن الله.. سوف تكون هناك زيارة في مثل هذا الوقت من كل عام.

شعرت بخنجر يبدأ بالانغراس في صدري، وقالت الزوجة:

ــ هل تعلم يا دكتور.. معظم الناس أخبرتنا أن سعادة الأم بمولودها أكثر بكثير من الأب، ولكن الجميع سيغير رأيه عندما يرى زوجي وهو ينظر إلى سلمى.. لا أعتقد وجود من يحب ابنته أكثر منه، لم يعد يخرج لرؤية أصدقائه ليجلس معها بالمنزل ويشاهدها تلعب وتحاول الوقوف.

يتابع الخنجر انغراسه ويصل إلى قلبي..

يقوم الزوج بوضع علبة على مكتبي قائلًا:

ــ هذه هدية صغيرة لتعلم أننا نحفظ الجميل ولا ننساه.

اخترق الخنجر قلبي وبدأ في الدوران ليصل بي إلى أقصى درجات الألم، في هذه اللحظة لم أستطع النظر في عينيهما؛ فأدرت نظري إلى سلمى، وعندها شعرت بالخنجر يخرج من قلبي ويبدأ

مسلسلًا من الطعنات المتتالية في جميع أنحاء جسدي، سلمى تملك عيناي.. إنها ابنتي دمائي تشعر بالحنين، سوف ينظر أقاربها إليها ويبدؤون في التخمين بأن لها أنف والدها وأعين والدتها ووجهًا يميل إليهما معًا، فالعامل النفسي سيؤدي دوره وسيصبح الجميع متأكدين من الشبه بينها وبين والدها، و... ولكنها ابنتي، فأنا أنظر إلى عيني، لم أستطع المقاومة أكثر من هذا وسقطت دمعة على وجهي، قام الزوج بالوقوف واحتضنني بقوة قائلًا:

ــ أعلم أنك غير مصدق عينيك فهي معجزة، سوف نتركك الآن لوجود مرضى في الخارج يبحثون عما أعطيتنا إياه، سوف ننصرف ومعك رقم هاتفي؛ أرجوك لا تتردد في الاتصال إن احتجت لأي شيء.

ثم حملا سلمى وانصرفا، مشاعر متضاربة من الإحساس بالذنب لوضعي رجلًا طيب القلب كل ذنبه أن حماه يملك الكثير من النقود في جنة زائفة حكم عليه بالعيش فيها إلى آخر عمره، أن تتربى فتاة في أحضان رجل لا يمت لها بأي صلة من القرابة، زوجة محبة وفية لزوجها تنجب من رجل آخر، وأن أحرم من ابنتي التي تملك عيني.. فقدت أي أمل في أن أنسى الماضي وأبدأ حياة جديدة، أنام وأستيقظ وصورهم تلمع أمامي، أقسم أني أتمنى التخلي عن ثروتي ورجوعي إلى نقطة الصفر، ولكنه لن يصلح شيئًا مما حدث.. الطعام أصبح ماسخًا، الشقة كئيبة، العيادة التي أمضي بها معظم وقتي تذكرني بما أقدمت عليه؛ فأصبحت أكرهها، حتى الشاليه في

الساحل الشمالي الذي ظننت أنه لتهدئة الأعصاب؛ أصبح يدفعني إلى الجنون، إما بسبب صوت السكون داخل الشاليه، وإما بسبب صوت الأطفال على الشاطئ، لا يوجد أجمل من أن تعيش في هذه الدنيا في المستوى الذي وضعك الله فيه.. لم أشعر بهذه النعمة إلا بعد أن فقدتها، المكان الوحيد الذي أشعر فيه باتزاني النفسي هو بيت أمي وأبي في حارتنا الفقيرة؛ حيث الحياة من دون التكلف الذي يمتص المتعة من هذه الدنيا، حيث الحب الخالص من دون أي مصالح أو أسباب، حيث الدفء الذي لا تعلم سببه وسط عائلة تستمد سعادتها من وجود أفرادها مع بعضهم، حيث الصفاء الذي يغمر جميع الأرواح في البيت ورضاهم التام عن حالهم وعمّا كتبه الله لهم فيما عداي بالتأكيد، أيها السادة أنتم أملي الوحيد لإعادتي إلى الحياة.

******

الفصل الرابع

بعد ما أنهى الدكتور عادل قصته؛ خيّم صمت ثقيل على المكان والجميع يفكرون فيما سمعوا، وبعضهم يتساءل عن إمكانية تصحيح مثل هذا الخطأ الذي سيلازمه إلى آخر العمر، قطع حبل أفكارهم صوت أحد رجال الدين:

ـــ لا تقلق يا بني.. إن الله غفور رحيم، سوف نعكف الليلة على دراسة حالتك لنحدد ما المناسب عمله حتى نتدارك ما يمكن تداركه. لي عندك طلبان، الأول أن تنتظر معنا إلى آخر الليلة حتى تسمع بقية الاعترافات؛ لكي نشد أزر بعضنا بعضًا، الطلب الثاني أن تضع في حسبانك أن التكفير عن الذنب يتطلب بعض التضحية، ودائمًا سيوجد من سيجرح من جراء كشف الحقائق، دورك ودورنا أن نتوصل إلى الطريقة المثلى للاعتراف والتكفير بأقل خسائر ممكنة من ناحيتك ومن ناحية المتضررين، والله المستعان.

اعتدل رجل الدين في مجلسه وبدأ العبث في الطبق أمامه ليخرج أحد الأسماء التي تنتظر دورها للاعتراف:

— حسنين.

سيطرت رعشة خفيفة على حسنين حين سمع اسمه.. لكنه سرعان ما سيطر عليها.

— يا بني اخكِ ولا تخف؛ فنحن هنا لمساعدتك، لا تبخل على نفسك بشيء، ففي يوم ما سوف تحاسب على جميع ما اقترفته يداك، من الأفضل أن تصلح دنياك الآن حتى تكسب آخرتك.

لم يجب حسنين؛ ففي عقله بدأ التفكير فيما سوف يتلوه، أخذ نفسًا عميقًا وبدأ في السرد...

الفصل الخامس

كانت مشكلتي أثناء سنوات مراهقتي التمسك الشديد بالتقاليد في عائلتنا، هذا التمسك الذي يزيد عن التدين في أحيان كثيرة، وتكثر أمثلته في الصعيد بين الفلاحين، فمنذ أن كنت في العاشرة من عمرى وأنا أعلم من هي زوجتي المستقبلية وهي ابنة عمي التي أكره وجهها المليء بالحبوب.. عملي المستقبلي مع والدي في الحقل الذي يمكنك من الحصول على قوت يومك بأعجوبة، ومسكني بعد الزواج المكون من غرفة واحدة.

لا أعلم هل الخطأ في أنني أحببت الأفلام المصرية والأجنبية، فأصبحت لدي تطلعات وأحلام تختلف عن أهلي وعشيرتي، أم أنني منذ مولدي وأنا أكره حياتهم البسيطة التي تبتعد عن الرفاهيات بعد العرب عن تحرير فلسطين، فلم يكن في منزلنا شديد التواضع إلى حد الفقر أي أجهزة كهربائية غير مصابيح الكهرباء إذا أردت احتسابها من الكهربائيات، والتلفاز الذي اعتدت مشاهدته كان في أحد المقاهي في قريتنا الصغيرة. لا يهم سبب اختلافي عن أهلى..

المهم أنني سئمت حياهم وفكرة التخطيط الكامل لحياتي بدون استشارتي، وكأن رأيي رفاهية لا أملكها. بعد تركي للمدرسة في المرحلة الثانوية؛ بدأ أبي يتحدث عن زواجي والعمل معه في الحقل فقد أصبحت رجلًا، كأن تركي للمدرسة يصنع مني هذا الرجل.

بالتأكيد لم أجرؤ على الاعتراض، فإذا كانت نشأتك في الصعيد؛ فستعلم ما الذي يعنيه اعتراضك على رغبة والدك، لم أرد الاعتراض وفي الوقت نفسه أخذت عهدًا على نفسي ألا أقبل بهذه الحياة التي تشتعل لها النيران بداخلي كلما تذكرتها.. ألا تؤتى الفرصة لتعيش قصة حب ولو فاشلة، أن تعمل طوال حياتك في عمل تكرهه وتعلم جيدًا سقفه الذي لن تتعداه مهما بذلت من جهد، ألا تشعر بقلبك ينبض خوفًا وإثارة من المجهول، حتى إن كنت ابنًا لمليونير، وتعلم طوال عمرك أنك ستعمل مع والدك وستتزوج ابنة شريكه الحسناء.. فلن تصبح سعيدًا، فهناك دائمًا متعة تخيل حياتك العملية والعاطفية. وبدأت ترتيب خطتي، وفي فجر أحد الأيام نفذتها، استيقظت باكرًا ووضعت خطابي الذي أشرح فيه سبب اختفائي على الطبلية حتى تراه أمي وهي تعد الفطور، ثم ركبت في إحدى السيارات المارة على الطريق لتوصلني إلى محطة القطار، فقد قررت أن أذهب للعمل في القاهرة، وأعود بعد بضع سنوات بعد أن أكون قد كونت نفسي... وليتني ما ذهبت.

******

من أشهر الأقوال في التاريخ «التوقعات في مقابل الواقع»،

فعندما يتخيل القروي الساذج الذي هو أنا العاصمة.. فهو يتخيل باريس في أبهى أمسياتها، شوارع مسفلتة ونظيفة، نساء مصففات الشعر يرتدين تنورات قصيرة كأفلام الأبيض والأسود، الرجال لا تفارقهم البدل مع المنديل الحرير في الجيب، الشهامة التي يبدو أنها انقرضت مع انقراض الديناصورات وأصبحت مجرد كلمة في المعاجم، أخبرتكم أنني كنت قرويًا ساذجًا ولا داعي لذكر الواقع، فأنا أتوقع أن معظمكم يعيش في القاهرة وبات يعرف الفرق بين توقعاتي والواقع الذي استقبلني. عند وضعي خطة القدوم إلى القاهرة انتابني الكثير من أحلام اليقظة.. العمل الذي سأجده يوم ذهابي كأنه ينتظرني، المسكن مع الشباب الجدع الذي سيعلم من ملابسي ومنظري أنني مغترب.. فيعرض عليّ المبيت لديه حتى أجد مسكنًا خاصًا بي، التعرف إلى فتاة حسناء تهيم بي حبًا ولا تهتم بالفارق المادي والاجتماعي بيننا، الفارق الذي يزيد في اتساعه عن طلبات ثورة ٢٥ يناير وما تم تنفيذه منها.. في أول يوم وصلت فيه إلى مدينة أحلامي قضيت الليل نائمًا على رصيف المحطة وفي الصباح وجدت يدًا توقظني بغلظة:

— استيقظ.. لسنا فندقًا خيريًا لاستقبال الشحاذين..

نظرت إليه ببلاهة لبضع لحظات ثم استوعبت كلامه. غادرت المحطة آملًا في أن أجد عملًا بمسكن مؤقت.. ولكني كنت واهمًا، ظللت يوما كاملًا أطوف على قدمي في كثير من الشوارع، أسأل عن أي عمل ولكنني كنت أقابل بالكثير من ردود النفي أشهرها

«هو حد لاقي شغل». بعد منتصف الليل شعرت بقدماي تتمزقان من كثرة المشي ومعدتي تصرخ من شدة الجوع كمولود صغير يريد الرضاعة، وبالتأكيد لم يكن معي أية نقود، فالجنيهات القليلة التي أتيت بها من قريتنا تم صرفها على تذكرة القطار وإفطار في الصباح، غالبني النعاس و لم أكن قد وجدت مكانًا للنوم، فلم يكن أمامي في هذه الأزمة غير بحثي عن رصيف في إحدى الحارات غير المزدحمة لأنام عليه.

— للمرة الثانية على التوالي استيقظت على يد تهزني بغلظة، فتحت عيناي.. كان المشهد مكونًا من ثلاثة شبان جاثمين فوقي، وكان الوقت ما زال ليلًا.. مطواة ينتهي نصلها عند رقبتي وصوت أحدهم:

— هيا لا تضيع وقتنا، نقودك حتى تتجنب رؤية دمائك..

من المفترض أن يكون رد فعل أي شخص طبيعي في هذه المواقف هو الذعر والبدء بالبحث وإخراج نقوده.. ولكنكم بالتأكيد تعلمون أن من ينام على الرصيف ليومين متتاليين هو شخص لا يملك شيئًا، أضف إلى هذا قدومه باحثًا عن أحلام وتوقعات تحولت إلى النوم في المحطة.. فكان المصير الطرد، ثم النوم في حارة.. فكان المصير التثبيت للسرقة، تحولت أحلامه مئة وثمانين درجة كما يتحول السياسيون بعد نتيجة الانتخابات، ولهذا بدأت أضحك بشكل هستيري.. لا أعلم هل أضحك على حالي أم على هؤلاء الأغبياء الذين يحاولون سرقة شخصٍ لا يملك شيئا في الحياة،

التفت الثلاثة إلى بعضهم وقال أحدهم:

— مجنون، أخبرتكم أن جميع النيام في الشارع مجانين ولا يملكون شيئًا.

— لسبب ما أردت نفي تهمة الجنون عني، لسبب لا أعرفه بدأت حديثًا مع لصوص بلطجية.. من الممكن أن يكون ما دفعني هو اليأس الذي بدأ يتملكني كأنني عبد من أيام الجاهلية لا حول له ولا قوة:

— لست مجنونًا، كل ما في الأمر أنني أضحك من سخرية القدر، فقد أتيت إلى القاهرة هاربًا من أهلي آملًا في العثور على عمل ومسكن، وها أنا ذا نائم على الرصيف ويوجد من يريد سرقة ما ليس معي..

وكأنني رأيت شبح ابتسامة في طرف فم أحدهم:

— ما اسم قريتك ومدينتك التي أتيت منها؟

— من **** في ******.

ضيق حدقتي عينيه كأنه يفكر ثم قال بعد برهة:

— أستطيع تمييز الكاذب جيدًا.. وأعرف أين قريتك وقد زرتها في صغري، يبدو أنك لن تكمل ليلتك نائمًا في العراء.. هيا ستبيت معي الليلة.

نظر الشابان له باستنكار ولكن لم يعترض أحدهما، وبالنسبة إلي لم أمهل عقلي وضميري أي وقت يسمح لهما بالتفكير، وقررت انتهاز الفرصة والذهاب معه.. هو الذي لم

أعرف ما اسمه بعد، لم أكن متديناً ولكن تقاليدي لا تسمح لي بالذهاب مع لص، فقمت بإسكات ضميري بأنها مرحلة مؤقتة حتى أجد عملاً ومسكناً خاصاً بي، وأسكت عقلي بأن بدأت أفكر في متعة النوم على سرير بدلاً من الرصيف شديد الصلابة، وهكذا ذهبت مع حمودة الذي علمت اسمه فيما بعد.

******

كان النوم على سرير بعد هذين اليومين بمثابة النوم في فندق خمسة نجوم، استيقظت في اليوم الذي يليه ظهراً ووجدت حمودة بجانبي، تحدثنا كثيراً فحكيت له عن عائلتي وسبب قدومي إلى القاهرة والصدمة التي اعتلتني من الحال التي وجدتها عليه.. فالقاهرة التي كنت أشاهدها في أفلام الأبيض والأسود لا تقارن بتلك العجوز الهرمة ذات العشوائيات والمباني المتصدعة والطرقات المزدحمة. في المقابل حكى لي عن نفسه وعن تفهمه الشديد لموقفي، فقد نشأ في الصعيد مثلي ثم انتقل مع أهله إلى القاهرة ليعمل والده بواباً في أحد المباني، بعد ثلاث سنوات من انتقالهم تشاجر حمودة مع أحد سكان البناية وقرر السكان طرد أسرته من البناية والبحث عن بواب آخر، ولينقذ حمودة أسرته من التشرد أو من الرجوع إلى قريتهم في الصعيد.. ترك الأسرة بعد حصوله على وعد من ساكن آخر أنه لن يتم طرد عائلته إذا رحل، تركها وذهب ليشق طريقه الوعر المليء بالمطبات المتمثلة في أصحاب القلوب السوداء. بعد حديث طويل، وبعد اللبنة الأولى من بناية الثقة التي وضعت بيننا

على استحياء قال:

— والآن لندخل في المفيد، تعلم جيداً أنه عليك أن تجد عملاً وبإمكاني أن أجد لك واحداً مع دخل محترم.

لم أرد ولكني اعتدلت في جلستي علامة على الاهتمام.

— يوجد أكثر من عمل يمكنني أن أعرضه عليك، ولكن أهم ما في الأمر هو الولاء، جميعنا هنا يعمل مع راقصة تدعى فاتن، وهي تنفق على من يعمل معها بسخاء، البعض من أعمالها ليس قانونياً بنسبة مئة في المئة، ولكنه ليس حراماً، فأنت تعلم بوجود الكثير من الخلافات في الدين.

بدأ الأمل في عيني يخبو قليلاً وسألته بصوت ظهر فيه القلق:

— أعمال مثل ماذا؟

— في البداية ستبدأ العمل كسائق يوصل أشخاصاً، وإذا أثبت كفاءتك سنبدأ تكليفك بنقل البضائع مع زيادة في الأجر بالطبع، وإذا أثبت كفاءتك وولاءك أعدك بأنك لن تندم وسيتم ترقيتك، هل تستطيع القيادة؟

— لا..

— إذن خذ وقتك وفكر، وإذا قبلت فسأبدأ بتعليمك القيادة من الغد.

قالها وانصرف.. وتركني في دوامة من الأفكار.. ما الذي يحدث، هل هذا هو المجهول الذي تركت عائلتي من أجله.. أن أعمل تحت إمرة راقصة وبعض أعمالها غير قانوني؟ لا أستطيع.. لست متديناً حالياً ولكن وازعي الأخلاقي يمنعني من الدخول في

مثل هذا الطريق الذي يعلم أي طفل صغير أن نهايته دائمًا كارثية، سوف أنتظر حمودة لأخبره بقراري وليحدث ما يحدث.

بعد نحو ساعة بدأت أفكر في الموضوع مرة أخرى، إذا أخبرت حمودة أنني أرفض عرضه فسوف يطردني من المنزل، وإذا طردت فلن أجد مأوى آخر، فقد بحثت عن عمل ومسكن ليوم كامل بدون أن أجد شيئًا، الجميع ظلوا يرددون «هو في حد لاقي شغل» كأنها دعاء لفك الكرب.. لست مستعدًا لخوض يوم آخر أجوب الشوارع وأنام على الرصيف، في المرة الأولى وجدني هؤلاء الشباب ومع القليل من الحظ عرض أحدهم عليّ المبيت عنده، ويا عالم، هل ستوجد مثل هذه الفرصة أم سيصبح مبيتي على الرصيف سريري الجديد، يجب التفكير بحذر.. قال حموده إنني سأبدأ العمل كسائق أوصل أشخاصًا فقط، والقيادة مهنة شريفة، لن أنقل أي بضائع مشبوهه كل ما هنالك هو القيادة لبعض الأشخاص، حسنًا.. فليكن.. سأعمل كسائق مؤقتًا إلى أن أجد عملًا آخر، وبالتأكيد سأتركه قبل الانتقال إلى مرحلة نقل البضائع.

بعدما أخبرت حموده بقبولي بدأت فورًا في تعلم القيادة، لم يكن لدي رخصة ولم أكن في سن تسمح لي بالقيادة.. ولكنه ضحك حين سألته على إمكانية قيادتي بدون رخصة وفي هذه السن، وأخبرني أنني لم أستوعب بعد من هي فاتن واتصالاتها، بصوت الخبير العالم ببواطن الأمور قال «يكفي أنها تزوجت مؤخرًا حمدي الأبنودي»، ولم أدرك وقتها ما كان يعنيه ولم أتكبد عناء سؤاله،

كل ما فهمته أنني يجب أن أكون مطمئنًا وأنا أخرق القانون.

بعد نحو أسبوعين من التدريب على القيادة؛ بدأت إتقانها إلى حد ما، وكثرة اللف بالسيارة أعطتني الفرصة لحفظ الكثير من الشوارع والطرقات في المنطقة التي سيكون بداخلها معظم عملي، وحين تأكد حمودة من قدرتي على القيادة؛ أرسلني إلى «مدام فاتن» كما أوصاني أن أناديها.. وأكد عليّ أن تكون عيناي دائمًا في الأرض وأنا أتحدث معها وأكلمها باحترام شديد، أن تنادي الراقصة بالمدام ويتم التعامل معها بمثل هذا الاحترام الزائد.. هو نوع غير مباشر من بيع الهوى في نظري، فأنت تحتقرها وترفض كل ما تمثله.. ولكنك مضطر إلى تبجيلها جريًا وراء لقمة العيش ككثير من الناس. ظننت أنني سأكون سائقها ولكنني كنت مخطئًا، فأنا أحقر من أن أقود السيارة لمعاليها، يجب أن تتم ترقيتي أولًا، أصبحت السائق الخاص لابنة زوجها التي لا يتعدى عمرها ست سنوات.

أن تسمع عن الثراء والرفاهية أو أن تراه في الأفلام شيء.. وأن تراه في الحقيقة شيء آخر، أن يكون لدى طفلة سائقها وسيارتها وخادمتها وطباخها ومدرستها ومدربتها الخاصة.. شيء يشعر كل من يعمل معها بضآلته وبأنه نكرة، و أن أهميته الوحيدة في الحياه هي توفير الراحه لمن يستحقونها.. لا أعلم لماذا يستحقونها ولكن هذا ما وجدنا عليه آباءنا، وعلى الرغم من الإحباط الذي شعرت به للفرق الشاسع بين هذه الطبقة وبيننا.. كأنه الفرق بين الإنسان

والقرد.. شعرت بجزء من الراحة لبعدي عن الراقصة وعملي مع هذا الملاك الصغير التي تدعى ندا. كانت ملاكًا بكل معاني الكلمة، هذا الجمال الذي انقرض منذ أن كانت كليوباترا ترمي الحسناوات في النيل إلى أن قضت عليهن جميعًا، الجمال الذي يعرف بعينين عسليتين، شعر بني ناعم طويل يصل إلى منتصف ظهرها، بشرة ناعمة شديدة البياض، وفوق هذا روح جميلة تحب جميع الناس من والدها وزوجته اللذين نادرًا ما يتواجدان في المنزل.. إلى جميع الخدم بدون استثناء، ففي كثير من الأحيان نجدها قادمة من غرفتها وفي يدها علبة من الشوكولاتة المستوردة، فتوزعها علينا حتى نهايتها، وفي أحد الأيام كنت مصابًا بزكام شديد وقد لاحظت معاناتي؛ فعادت إلى المنزل قبل أن ننطلق إلى المدرسة وخرجت حاملة دواء أكدت لي أنه سوف يشعرني بكثير من التحسن، وقد كان هذا من أسباب دهشتي، ففتاة تعيش في مثل هذه الرفاهية ثم تحافظ على براءتها ولا تتأثر بالمعاملة الملكية منذ مولدها؛ هي فتاة طيبة القلب والروح بطبعها بعيدًا عن البيئة التي تنشأ وسطها.

******

كانت مهام عملي شديدة السهولة، أصطحب ندا في السابعة صباحًا لإيصالها إلى مدرستها التي تبعد نحو نصف ساعة، ثم أنتظر أمام المدرسة حتى تخرج في الثالثة لأصطحبها إلى المنزل، ثم أعود إلى الشقة مع حمودة وهذا كل شيء. وخلال الوقت الذي كنت أمضيه في جراج الفيللا منتظرًا ندا.. وكان يتراوح من ثلاث دقائق

إلى خمس وأربعين دقيقة.. كأن الوقت لا يمثل أي أهمية لدى من يحضر هذه الطفلة للمدرسة؛ نشأت صداقة بيني وبين البستاني.. كان من الشخصيات التي من الممكن أن تطلق عليها «شخصية خفيفة».. فمنذ أن تعزم عليه بسيجارة أو تتناول فطورك معه؛ فهو يعتبرك صديقًا مخلصًا وعشرة عمر ويبدأ في إخبارك ماذا فعل مع زوجته ليلة البارحة، فعلمت منه من هو حمدي الأبنودي والد ندا الذي أخبرني عنه حمودة سابقًا و لم أفهم ما يعنيه، الآن فقط علمت ماذا يعني أن يكون عملك عند شخص مثل حمدي الأبنودي، فهو حوت بكل ما في الكلمة من معنى.. يعمل بالمقاولات، قرى سياحية، مصانع حديد، شركات سياحة. كان طبيعيًا ألا تكون لدي قدرة على تصديق أن شخصًا واحدا يملك كل هذه الثروة، ولكن رؤيتي لفيلته التي هي قصر منيف يصلح لمملكة أسطورية، ومتابعتي لحياة ابنته وما ينفق عليها؛ جعل في مقدرتي تصديق عمله في كل هذه المجالات. حدثني البستاني العجوز عن زوجته السابقة، والدة ندا التي توفيت منذ عامين.. كانت آية في الجمال على حد قوله، بصوت استشعرت فيه الحزن قال:

ــ الله يرحمها كانت مختلفة عن هذه المسماة مدام فاتن التي ابتلانا الله بها، والدها عمل سفيرًا لمصر في أكثر من دولة أوروبية ووالدتها طبيبة أطفال، كانت سليلة عائلة عريقة تستطيع أن تفخر بنسبها، حسب ونسب وأخلاق على أعلى مستوى، معاملتها لنا كانت تشعرنا أننا جزء من العائلة.. أما هذه المدام فاتن فأجارك

الله، ملابسها فاضحة.. تحرك بداخلك غرائز ظننت أنها لم تعد موجودة، تعطينا أوامر كأننا عبيد أفارقة في أمريكا بعد أسرهم في القرن الماضي، لا أعلم ما طبيعة عملها ولكني أعتقد أنها ليست شريفة.

ابتسمت بداخلي حينما شكك في طبيعة عمل فاتن، ولم أرد إخباره بممارستها الفن الاستعراضي المعروف بالرقص البلدي وتجارتها ببعض البضائع، لو كانت القصة في زمن الإنترنت والفضائيات التي تملأ كل منزل كالسرطان.. لما شكك البستاني العجوز في طبيعة عمل فاتن؛ بل أصبح متأكدًا منه. من ناحية أخرى شردت بالتفكير في حديثه عن والدة الطفلة ندا، هذا يفسر جمال روحها وأخلاقها التي ورثتها عن والدتها واستقرت في جيناتها، سؤال بلا جواب ظل يلح عليّ وهو: كيف ينتقل رجل من زوج لسيدة مجتمع راقية إلى زوج راقصة؟ و لم أجد له جوابًا.

******

مرت الأيام برتابة لم أعهدها من قبل، إذا لم أحسب ساعات وقوفي أمام مدرسة ندا في انتظارها.. لما زادت ساعات عملي عن ساعتين أو ثلاث في اليوم، أعود بعدها إلى الشقة في الرابعة والنصف أو الخامسة.. ولا أجد ما أفعله حتى اليوم التالى. وبسبب الفراغ وعدم وجود أي هواية في حياتي، استطاع حمودة أن يجذبني معه إلى أقذر عادة ممكن أن تمارس.. المخدرات أو مذهبات العقل بأنواعها، في البداية تعلمت تدخين السجائر، وككل السذج

الذين تزيد نسبتهم على ٩٩,٩٩٪؛ طمأنت نفسي بأنني لا يمكن أن أدمنها وأنها مجرد هواية وبإمكاني تركها في أي وقت أريده، وكسذج آخرين تتراوح نسبتهم من ٥٠٪ إلى ٦٠٪ طمأنت نفسي بأن السجائر شيء والمخدرات شيء آخر، فهي مذهبات للعقل وغير قانونية ومن الكبائر، وبالتأكيد ستوقفني نشأتي في مجتمع يحافظ على القيم. كان حمودة يدخن الحشيش والبانجو، وفى بعض الأحيان الهيروين وأي شيء يقع تحت يده، في كل ليلة أراه يلف سجائر لا أعلم ما بداخلها ثم يبدأ في استنشاقها وقد تبدلت ملامحه، كأنَّ الطيبة والهبل قد غزوا وجهه وطردا القسوة البادية في ملامحه، يضع السيجارة المحشوة بين شفتيه ويسحب نفسًا عميقًا ثم يخرج سحابة دخان كثيفة ويقول:

— آآآآآآآآهههههه، إنتا فايتك كتيييير.

وبالتأكيد تعلمون بقية القصة؛ لأن الآن أنسب وقت نذكر فيه المثل القائل «الزن على الآذان أقوى من الطرق على السندان»، المثل العقيم الذي أكرهه لصحته ولحدوثه معي حرفيًا.. في البداية بدأت التدخين، ثم بدأت الجلوس بجانب حمودة وهو يحشو سجائره، وبالتدريج بدأت أعجب برائحة سجائره المكونة من الحشيش والبانجو، ورويدًا بدأ صوت نشأتي المحافظة في عقلي يخفت نتيجة وجود صوت آخر لا يكلّ ولا يملّ من ترديد «خذ نفسًا من سيجارة حمودة.. لا يعقل أن تأتيك الفرصة لتجرب ولا تنتهزها.. هل تريد أن تتذكر هذه الأوقات في المستقبل وتندم على

تركك لها بدون معرفة ما آثار هذه السجائر؟ ولماذا أنت خائف
من إدمانها، من الممكن ألا تعجبك فتتركها إلى الأبد بدون ذرة
ندم واحدة»، وفي إحدى جلسات الأنس بجانب حمودة خارت
قواي كفيل ضخم سقط أرضًا بعد تراكم الأقواس والرماح على
جسده؛ فانتشلت السيجارة من يده بدون استئذان.. وضعتها بين
شفتي وسحبت نفسًا عميقًا طويلًا، كأنني أنتقم من جلوسي بجانبه
طوال الفترة الماضية بدون مشاركته نشاطه، ضحك حمودة كثيرًا
حتى دمعت عيناه كعادة بعض المدمنين وقال من بين ضحكاته:

ـ أخيرًا يا ابن الـ***، الجميع يمتنعون في البداية.. ولكنهم
سرعان ما يعودون لرشدهم، أحد الرسامين قال إنه يرسم لأن الفن
هروب من واقع الحياة المؤلم، وأنا أيضًا أتعاطى لأهرب من واقع
الحياة المرير، فيعتبره المجتمع فنانًا ويعتبرني مدمنًا يجب أن يعالج،
هذه المعايير المزدوجة هي السبب في تخلفنا وعدم تطور بلادنا
كالغرب.

بعد أن أنهى كلامه الحكيم الذي يتشابه في مضمونه كثيرًا مع
آراء بلية صبي الميكانيكي حينما يريد أن يتفلسف ويعطي رأيه في
أيديولوجيات الحكماء الصهيون قبل وبعد اكتشاف الذرة، طبقت
عليّ مقولة القتل أول مرة هي أصعب مرة، من سكات أخذت
قطعة من ورق البفرة من على الطاولة وبدأت أحشوها بالمفيد.. ثم
أرحت ظهري على الأريكة وأخذت أدخن أول سيجارة محشوة
في استمتاع العاشق بتذوق جسد معشوقته لأول مرة، بعض الدوار
اجتاحني ولكنني شعرت براحة كأن ذهني تم إخلاؤه كمنزل

مزدحم بالأثاث ثم تركه ساكنوه وأخذوا جميع أثاثهم معهم..
نسيت عائلتي الذين تركتهم منذ أشهر وعملي السخيف الذي لا
أصدق أنني لم أتركه بعد. في اليوم التالي عندما دلفت إلى المنزل
كان حمودة جالسًا يدخن بعض السجائر الملفوفة، عندما رآني
أشار إلى الطاولة فرأيت سيجارة محشوة متروكة، ففهمت أنه لفها
وتركها لي، وددت لو أخبرتكم أنها اللحظة الفارقة؛ فإما أبدأ في
الشرب أو أمتنع للأبد، ولكن للأسف لا أستطيع.. ففي اللحظة
التي وقعت فيها عيناي على السيجارة ذهبت إلى مقعدي وأشعلتها
في سرعة كأنني أنتظرها.. ظللنا يومها ندخن لساعتين حتى نفد ما
ابتاعه حمودة، وعلمت يومها أن الحشيش أو البانجو لم أكن أدري
وقتها ما تعاطيته هو مصدر سعادتي الوحيد في هذه الحياة، فلم
أشعر بمثل هذا الاسترخاء والرضا عن الحياة من قبل، لم يكن لدي
أدنى فكرة بوجود مثل هذا الشعور.

******

لم أكن أعلم هل أصبحت أحب حياة القاهرة، أم أن هذا هو أثر
سهراتي مع حموده التي كانت تنسيني لماذا أعيش مع تاجر مخدرات
مدمن وأعمل لدى راقصة.. فأشعر بالسعادة وأرى مستقبلًا زاهرًا
ليس له وجود، في البداية كنت أدخن ثلاث أو أربع سجائر،
ثم تدريجيًا بدأ عقلي يتأقلم مع ضيفه الجديد.. في الشهر الأول
كنت أذهب إلى عالم أليس في بلاد العجائب بعد سيجارة أو
سيجارتين، وكعادة جميع المدمنين في الكرة الأرضية وخارجها لو
وجد مدمنين في كواكب أخرى؛ زادت الجرعة المطلوبة لإغلاق

عقلي بالضبة والمفتاح وتركي في عالم الهذيان الجميل، فأصبحت أنهي خمس سيجارات.. ثم سبعًا وثمانية وفى العطلات تزيد على عشر، وحينما وصلت إلى استعمال هذا الكم من السجائر طلب مني حمودة المشاركة في المصاريف، فهو يكسب الكثير من عمله الشريف جدًا ولكن استهلاكنا معًا؛ أصبح يشكل عبئًا عليه، فأصبحت أعطيه نصف راتبي لشراء كنزنا الثمين الذي نقوم بإحراقه كل ليلة.

سارت حياتي التي اختفى من طياتها أي أمل في مستقبل كنت أحلم به على وتيرة واحدة، إيصال ندا إلى مدرستها في الصباح، انتظارها حتى تخرج ثم اصطحابها إلى المنزل، وبعد عودتي إلى الشقه مع حمودة تبدأ بوابات عالمى الخاص في الانفتاح، فأدخل تاركًا عقلي مع رجل الأمن في الخارج. وفى أحد الأيام دلفت إلى الشقه فوجدت ضيفًا جالسًا مع حمودة، بعد إلقاء التحية والتعارف عن طريق حمودة قال الضيف :

ــ أخبرنى حمودة بنشاطك الزائد في استهلاك منتجاتنا، لذا أردت أن أكافئك بهدية قيمة.

ظهرت على طرف فمي ابتسامة.. فالطيور على أشكالها تقع، وما دام صديق حمودة، لذا من الواجب أن يكون إمّا تاجر مخدرات أو مدمنًا متمرسًا.. وإلا فلن يستطيع الحوذ على شرف التعرف إلى حموده، في صوت مبحوح من كثرة الشرب قال:

ــ الحشيش والبانجو شيء والسحر الأبيض شيء آخر، ونظرًا

لولائك الملحوظ لمنتجاتنا أردت أن أعطيك عينة لتجربتها.

وفي هدوء أخرج كيسًا مملوءًا ببودرة بيضاء ولم أحتج إلى كثير من المجهود لأعلم أنه هيروين، وكلازمة إعلان مشروب الشعير فيروز «التطور الطبيعى للحاجة الساقعة» كان هذا هو التطور الطبيعي للمخدرات، ما الذي كنت أظنه.. أن أعيش على البانجو والحشيش طوال العمر؟ من أنا حتى أقف في وسط السلم التدريجى للمخدرات الذي ينتهي بالموت بالتأكيد، بدأ حمودة يعد العدة في سرعة من اختبر الهيروين من قبل، فوضع بعض البودرة على الطاولة، أخرج بطاقته حتى يحدد وضعية البودرة في صف رفيع بالعرض ليسهل استنشاقه، ثم أخرج ورقة من فئة الخمسين وكورها حتى أصبحت أنبوبة صغيرة، وتعرفون البقية، فقد وضع الأنبوبة على خط الهيروين وبدأ في استنشاق السحر الأبيض على رأي ضيفه الجليل، قررت بداخلي أن الحشيش والبانجو شيء والهيروين شيء آخر، لا أعلم بالضبط مخاطره، ولكننى أسمع أنه أخطر أنواع المخدرات وأسوؤها، قاطع أفكاري صوت حمودة :

ــ تعالَ يا حسنين.. شكلك بتفكر.. هي دى فيها تفكير، عزفت عن سجائري الخاصة في البداية ثم انقضضت عليها كالقطط في موسم التزاوج، هيا لا تلعب دور الراهب مرة أخرى.. تعلم جيدًا أنك تريد تجربة هذه البودرة الساحرة.

وقعت كلماته عليّ ثقيلة مقززة لصحتها، سأؤدي دور الراهب لبضعة أسابيع.. ثم سأتحول من راهب إلى داعر تتم إثارته عن طريق

ما يتعاطاه حمودة، لا أريد تجربتها لأنني لا أريد إدمانها، قطع حبل أفكاري حمودة:

— يووووه، إذا كنت لا تريد الهيروين لن أجبرك على شيء.. ولكن يجب عليك تجربته على الأقل الآن، لا يصح أن يأتينا صديقي بهدية ولا نشربها معه، لا تقصر رقبتي أمامه.

لا أريد الهيروين ولكن لا أحب أن أبدو قليل الأصل أمام من استقبلني في شقته ووجد لي عملاً، ورددت بداخلي المقولة الأشد سخافة وهزلية على مدار التاريخ «سأجرب مرة واحدة فقط»، وجربت مرة واحدة فقط بالفعل، في هذه الليلة.

******

مرت ثلاثة أشهر على المرة الأولى التي اختبرت فيها الهيروين، وها أنا ذا.. مدمن هيروين من الدرجة الأولى، اليوم الذي أتأخر فيه عن استنشاق جرعتي من إكسير الحياه الأبيض أشعر بتكسير في كل أنحاء جسدي، وكأن عظامي تحولت إلى مطارق لا تكف عن الضرب في جميع أعضائي، لم يعد يكفي أن أعطي نصف راتبي إلى حمودة؛ فأصبحت أعطيه كل راتبي وهو يتكفل بطعامي والبودرة التي عشقتها حتى النخاع، لم يعد مجرد عشق؛ بل أصبحت كالهواء الذي أتنفسه، هذا غير الحالة التي أدخل فيها بعد استنشاق عمود أو اثنين، فأشعر بتنميل في جميع أنحاء جسدي وراحة لا يمكن أن توصف، كأنني في الفضاء من دون جاذبية أرضية. بعد شهرين آخرين ازداد استهلاكي من البودرة حتى صارحني حمودة أن راتبي لم يعد يكفي، واقترح أن أبدأ في العمل معه ببيع منتجاته، فبعد

عودتي إلى الشقة بدأ في إعطائي حقيبة مملوءة بأكياس صغيره مع عناوين لإيصال كل كيس إلى أحد العملاء، كان عملاً سهلاً ومتكفلاً بجرعتي اليومية من البودرة ولم يكن يعنيني وقتها أي شيء آخر.

ظللت لمدة أسبوعين في عملي الجديد الذي يبدأ في الخامسة وينتهي في السابعة، فأعود بعدها إلى الشقه لأجني ثمار تعبي طوال اليوم عن طريق طاولة يوجد عليها ما يذهب عقلك ويدخلك في حالة اللاوعي بعد استنشاقه، وفي الأسبوع الثالث جاء اليوم الذي حدثت فيه الفاجعة.. تلك التي قلبت حياتي رأسًا على عقب وأعادت إليّ رشدي من صدمتها.. الحادثة التي لم تغب عن ذهني في يوم من الأيام رغم مرور خمسة عشر عامًا على حدوثها، والتي هي سبب حضوري اليوم. بعدما أنهت ندا مدرستها اصطحبتها إلى منزلها، دققت جرس الفيللا أكثر من خمس مرات بدون أي استجابة، لم أعرف ماذا أفعل؛ فذهبت إلى أحد الأكشاك وطلبت رقم حمودة بالمنزل، أخبرته بما حدث وطمأنني أنه يحدث أحيانًا أن ينساها والدها وزوجة أبيها وينغمسان في أعمالهما وطلب مني اصطحابها معي إلى الشقة حتى يعود أهلها، سألته إذا لم يوجد أي من الخدم، فأخبرني أن اليوم هو الخميس ويتم فيه تبديل ورديات الخدم ومن الممكن أن يكونوا قد تأخروا، وضعت السماعة وحاسبت صاحب الكشك ثم ركبت السيارة واتجهت إلى الشقة.

ركنت السيارة ولم أدر ما العمل، هل أصطحب ندا معي إلى

الشقة أم أتركها في السيارة؟.. الشقة شديدة القذارة لا تليق بأميرة صغيرة مثل ندا.. سيكون المنظر كجوهرة وضعت وسط براز في مزرعة ماشية، لذا قررت تركها، أخبرتها أنني سوف أصعد إلى شقتي لأجلب بعض الأشياء ولن أتأخر، في جزع وبصوت يمكنه ترقيق قلب جانكيز خان نفسه قالت:

ــ عم حسنين.. ما تسبنيش لوحدي أنا بخاف..

وبالتأكيد بعد هذا الصوت وهذه النظرة لم يكن أمامي خيار غير اصطحابها، ويا ليتني ما اصطحبتها.

ترجلنا من السيارة ومدت يدها إلى الأعلى في إشارة لي لأمسك بها، مسكت يدها وشعرت بها شديدة الصغر والرقة بين يدي الكبيرة الغليظة، صعدنا السلم وأولجت المفتاح في الباب ودخلنا الشقة. ألقيت التحية على حمودة ووجدت معه ضيفين قدمهما إليّ على أنهما من حبايبنا، بالتأكيد لمحت البودرة الموضوعة على الطاولة أمامهم ولكني استأذنتهم ودخلت إلى الغرفة حتى لا تلوث براءة الطفلة بمشاهد التعاطي القميئة. أجلستها على السرير؛ فوضعت رأسها على الوسادة واستغرقت في النوم، نظرت إليها وعندما تأكدت من نومها بدأ الشيطان الذي ولد بداخل عقلي منذ إدماني للهيروين في الاستيقاظ وممارسة عمله اليومي، بدأ في إخباري بوجود هيروين جاهز للاستنشاق في الصالة بجانبي كأني لا أعلم.. ثم هنأني على حسن تقديري للأمور عندما أدخلت ندا إلى غرفتي لتبتعد عن الشباب وهم يتعاطون.. وطمأنني أن ندا نائمة ولا يمكن

أن تستيقظ، فالأطفال في هذه السن يحتاجون إلى الكثير من النوم، في النهاية طلب مني ألا أقرب الهيروين وأنتظر إلى حلول الليل، ولكن يجب عليّ أن ألقي نظرة على حمودة وضيوفه، رضخت لكلامه طالما لن أتعاطى أي هيروين.. سألقي نظرة واحدة على الشباب في الخارج وأنتظر إلى أن تستيقظ ندا، جلست بجانب حمودة وطبعًا أقدم على التصرف المنتظر من شخص في مقامه، فقسم الهيروين أمامه إلى قسمين وأشار بيده إليه علامة أن «اتفضل». لا تحتاج إلى أن تكون مدمنًا لتعلم أني انقضضت على الهيروين كالكلاب والقطط وجميع الحيوانات في موسم التزاوج، عندما تتغير حالتك الاجتماعية من أعزب إلى مدمن تتغير معها طريقة تفكيرك أو بالأصح تلغي أي طريقة أخرى للتفكير غير البحث عن الكيف، ظللت أستنشق كأن حياتي تعتمد على مقدار ما أدخله إلى جسدي من هذا المسحوق.. إلى أن ابتعدت كثيرًا عن عالمنا ودخلت إلى عالم الهيروين الخاص.. حيث لا تشعر بأطرافك ولا بجسدك ولا بعقلك، إنه عالم الانتشاء كما يسميه حمودة.

شعرت بصوت أحد الضيوف يسأل حمودة عن دورة المياه ثم توجه إليها، وفي الدقائق التالية كان أبشع مشهد يمكن أن تقع عليه عين أي كائن حي، حيث عاد الضيف من دورة المياه وفي يديه رأيتها، كانت ندا محمولة على كتفيه كأنها جوال أرز، وضعها في حدة على الطاولة أمامنا وقد استيقظت وبدأت في الصراخ، كان وجهها إلى الأسفل وتنظر ناحيتي.. ملابسها مكونة

من تنورة تنتهي عند ركبتيها.. فما كان من الضيف الثقيل إلا أن نزعها عنها أو بمعنى أصح مزقها ومزق لباسها الداخلي حتى أصبح نصفها السفلي عاريًا تمامًا، وفي مشهد مقزز تقشعر له الأبدان خلع سرواله وبدأ في اغتصابها وصوت صراخها يصم الآذان، أما نظراتها المستغيثة فكانت كالسهام تخترق عيني، لا تسألوني لماذا لم أمنعه؛ لأن من جرب الهيروين سيعفيني من هذا السؤال.. فقد كنت أنظر إلى عيني ندا المستغيثتين.. وإلى الجسد الذي يتحرك فوقها وأريد التحرك ولا أستطيع كأني في كابوس وتم تكبيلي، جسدي لا يستجيب إلى الأوامر التي يطلقها عقلي كأنه أصبح يتبع سيدًا آخر، التنميل والتكسير والرؤية التي يشوبها الهلوسة هي كل ما شعرت به، صراخ ندا يتعالى ومعه يتعالى عجزي إلى أن شعرت أنني شخص آخر، أتذكر هذه اللحظات كثيرًا كأنها مرض ووصمة عار لصقت بي ولا يمكن زحزحتها.

حينما تاب علي جسدي وأفاق عقلي بدأت أرى الموقف، لم يوجد في الشقة غيري وحمودة وندا فاقدة الوعي على الطاولة أمامي.. عارية الجسد تمامًا وكأن المغتصب لم يكفه نصفها السفلي، وهناك دماء متجلطة أسفلها.. أدرت وجهي الذي استحال إلى تعريف الهلع إلى حمودة.. مستنجدًا به غير قادر على النطق، في صوت لا يصلح لتهدئة طفل صغير قال:

ـــ لا تقلق، لن يعلم أحد بما جرى سأعمل على إخفاء جميع الأدلة

ـــ كأننا ارتكبنا جريمة قتل ونريد إخفاء الجثة، الفتاة صغيرة ولن تفهم ما حدث حتى تستطيع الوشاية بنا، بالإضافة إلى هذا والدها ومدام فاتن سافرا فجر اليوم إلى لبنان ليحضرا بعض الحفلات ولن يعودا قبل أسبوعين.

ـــ أجننت يا حموده؟ بالتأكيد سيعلم أي أهبل يغير ملابس الفتاة ما حدث..

ـــ لن تراها غير الخادمة في المنزل والخادمة في المدرسة وسأعمل على زيارتهما الآن لأتأكد من إبقاء فمهما مغلقًا، هيا لا تضع الوقت سنذهب إلى صيدلية أحد أصدقائي ليكشف على الفتاة ويعطينا أي شيء ندهن به هذا الجرح ليختفي ثم نعيدها إلى منزلها.

لم أحرك ساكنًا، لم أعلم وقتها هل تسمرت في مكاني بسبب ما كنت أستنشقه أم بسبب ذهولي وعدم استيعابي لما حدث، رآني حمودة على هذه الحالة فقال:

ـــ لا تستطيع استيعاب ما حدث حسنًا.. أتفهم ذلك.. أعطني مفاتيح السيارة.. سأذهب مع الفتاة إلى الصيدلية وأبتاع لها بعض الملابس ثم أصطحبها إلى منزلها.

أخرجت مفتاح السيارة من جيبي وناولته إليه، أخذ المفتاح ثم توجه إلى الطاولة وحمل ندا التي ما زالت فاقدة الوعي حتى هذه اللحظة ثم لفها في ملاية، وهو يفتح الباب ليذهب استوقفته قائلًا:

ـــ حمودة، ما الذي سنفعله مع مغتصب الفتاة؟

ـــ لا تشغل بالك به.. إنه أحد حبايي طيب القلب، ولكن

هباب الذي سنتنشقه هو ما يخرج أسوأ ما بداخلنا ويوهمنا بفعل أشياء ليس لنا دخل بها، صدقني ليس خطؤه.. إن كان قد أخطأ فسأعاقبه بنفسي ولكني أعلم جيداً أنه لم يقصد.. ثم إن الله غفور رحيم.. لا تفقد إيمانك بسبب موقف كهذا..

ثم أغلق الباب وراءه وخرج وتركني في حالة لن أحاول وصفها لعدم وجود الكلمات اللازمة، أي عالم هذا الذي أحيا فيه، لا أعلم ما الأسوأ اغتصاب الفتاة الصغيرة أم تبرير اغتصابها؟ أم تذكيري بألا أفقد إيماني بسبب هذا الموقف لأن الله غفور رحيم؟؟ مسابقة لا يوجد بينها رابح عن أسوأ ما تم في الساعات الماضية، الحضيض الذي لا يوجد بعده انحدار هو التعريف الوحيد الذي آلت إليه حياتي.. لقد كانت تصرخ أمامي وأنا غير قادر على التحرك لنجدتها.. أنا الذي أتيت بها إلى هذه الشقة النجسة وقدمتها لهذه الذئاب البشرية على طبق من فضة، عندما أردت أن أتركها وحيدة في السيارة قالت «عم حسنين ما تسبنيش لوحدي أنا بخاف»، لقد احتمت بي الطفلة الصغيرة واعتبرتني مصدر أمان فكان جزاؤها الهلع الذي مرت به، كأن تشاهد ذات الرداء الأحمر وهي جالسة أمام الذئب المتنكر في هيئة جدتها غير عالمة بما يمكن أن يحدث لها، سخرية القدر أن أقود ندا التي هي تعريف البراءة إلى ذئب بشري وهي تظن أنها محتمية بوجودي.

طوال ساعتين لا أعلم كيف مضتا، ظللت أغفو وأستيقظ على الأريكة غير شاعر بما حولي كمريض الحمى بعد تناوله الأدوية، ثم

سمعت صوت الباب يفتح ورأيت الشيطان الأخرس حمودة:

— الله يخرب بيتك تبدو كجثة هامدة، أعلم أن المرة الأولى في القذارة هي الأصعب ولكن يجب أن ننسى لنتابع حياتنا، قبل الإسلام ارتكب الصحابة الكثير من الأخطاء ومع الإسلام استغفروا الله، لسنا أفضل من الصحابة.

بدأ يغزوني شعور جديد غير الندم.. الخوف، حمودة ليس بني آدم.. إنه شيطان من شياطين الجن، لا يوجد من يستطيع أن يفكر مثل هذا التفكير غير شيطان، يقارن مدمناً وتاجر مخدرات مغتصب أطفال بالصحابة!!! أودّ أن أقتله حتى يستريح العالم من شره، في صوت مرتجف قلت:

— ماذا فعلت؟

— ذهبت مع الفتاة إلى الصيدلي صديقي فحصها وطمأنني على حالتها ثم وضع مرهما على مكان الجرح، وأعطاني المرهم ليتم دهنه للفتاة مرتين في اليوم لمدة أسبوع حتى ينتهي أثر الجرح، ابتعت لها بعض الملابس وقد كلفتني ثلاثين جنيهاً بنت الإيه، ثم اصطحبتها إلى المنزل وقابلت الخادمة القائمة عليها وحرصت على أن تبقي فمها مغلقاً.

— و كيف ستتأكد أن فمها سيظل مغلقا، إذا أخبرت والد الفتاة سيمزقك إرباً وسيحمي الخادمة.

— حسنين لن أخبرك كيف أنا واثق أنها لن تتفوه بشيء لأن قلبك ما زال ضعيفا ولن تتحمل، سوف أذهب غداً إلى مدرستها

لأقابل الخادمة القائمة عليها هناك.

لا يريد أن يخبرني ولا أريد أن أعرف، يكفيني ما أنا فيه وما يعتمل بداخلي.

— سأذهب الآن لتوصيل بعض البضائع وشراء جرعتنا اليومية ستشعر بكثير من التحسن بعد سهرتنا الليلة.

تركته ينزل واتخذت القرار الوحيد الذي لم أندم عليه يومًا في حياتي.. العودة إلى القرية للعيش مع والدي والعمل في الحقل، لا أعلم هل سيسامحاني لتركهما بهذه الطريقة أم لا.. ولكني سأعمل خادمًا تحت أقدامهما طوال العمر آملا في التكفير عن جزء صغير مما سببته لهما. دخلت إلى غرفتي وجمعت ما يمكن حمله من أشيائي بيدي وانصرفت من هذه الشقة بدون رجعة.. شعرت وقتها براحة من خرج من السجن بعد عشر سنوات حبس. أريد التوجه إلى قريتي ولكن هناك ما يجب علي تخطيه أولاً.. إدماني الشديد، لذا قررت أن أنتظر بضعة أيام في القاهرة حتى تنتهي معظم آلام التوقف عن التعاطي من جسدي ثم أذهب إلى أهلي، أين سأنام في هذه الأيام؟ في الشارع طبعًا لا يوجد مكان آخر لدى القليل من المال أخذته من غرفة حموده قبل انصرافي سيكفى طعامي وتذكرة القطار، ولكنه بالتأكيد لن يكفي النزول في فندق أو بنسيون.

******

أسوأ اثنتين وسبعين ساعة مرت كأنها الدهر كاملًا من سيدنا آدم — عليه السلام — إلى يوم الآخرة، هل التوقف عن التعاطي مؤلم إلى هذا الحد.. لهذا من يبدأ بالتعاطي لا يتوقف إلى أن يصل

إلى آخر محطة في القطار وهي الموت؛ لأنني لا أتوقع وجود بشري يستطيع تحمل مثل هذه الآلام. مطارق لا تكف عن الطرق في جسدي ولو للحظة واحدة، أصرخ وأبكي حتى أشعر أحبالي الصوتية تكاد تتقطع، لا أستطيع النوم ولو لدقيقة واحدة من شدة آلامي، أشعر بسكاكين تقطع أعضائي من الداخل؛ فأنظر إلى جسدي متوقعًا رؤية دماء فلا أجد شيئًا، أطرق رأسي في الرصيف الجالس عليه حتى أشعر بالدماء الساخنة تنحدر على وجهي ولا يزال الألم لا يقارن بما أشعر به، يأتيني الكثير من اللحظات التي أود فيها العدول عن قراري والعودة إلى حمودة حتى أستنشق نبع الحياة، ولكن نظرات ندا المستغيثة بي وقت اعتلائها تعيدني إلى رشدي.. في النهاية.. بالطول وبالعرض مرت الاثنتان وسبعون ساعة، وبدأت أشعر بتحسن طفيف، كأن استطعت الوقوف والمشي في الشارع بدون الصراخ الدائم.. وظفرت ببضع ساعات من النوم، لذا قررت أن وقت العودة إلى عائلتي قد حان، فحجزت تذكرة في أول قطار متجه إلى قريتي ودعوت الله ألا ينبذني أهلي وأن يقبلوني بينهم مرة أخرى.

في اللحظة التي وقعت فيها عيناي على والدي لم أدر بنفسي إلا وأنا في وضعية السجود عند قدميه لتقبيلهما والإجهاش بالبكاء مرددًا «سامحني يا بوي»، مد يده تحت إبطي في علامة يستحثني فيها على الوقوف، فوقفت ونظرت إليه دامع العينين فقال:

— عملنا وحياتنا لا يتخللهما الرفاهية، ولكن يوجد بها ما هو

أفضل.. العمل الشريف، البيئة النظيفة، الأمانة والعشرة الحسنة، منذ أن قرأت خطابك وأنا أعلم أنك ستعود.. لا يوجد أفضل من الحياه في الهدوء والخلاء والإحساس بالأمان مثل قريتنا.

و أنهى جملته بإحتضاني ثم قال:

ـــ ابتداءً من الغد ستنزل معي الحقل، لا تتصرف كالعائد من السفر ويحتاج إلى الراحة، هديلك على نفوخك.

كم اشتقت إليه، كم كنت ممتنًا أن أعادني إلى حياتي بهذه السهولة وبدون أي تأنيب، كم أنت عظيم يا أبي وكم أنا حقير، سأعوض أهلي عما بدر مني، سأعمل عبدًا عندهم حتى آخر العمر.

بدأت أنظر إلى قريتي من منظور مختلف كأنني كنت أرتدي عدسات سوداء عليها غبار ثم خلعتها، لم أكن أعلم أن العمل في الحقل ممتع إلى هذه الدرجة، أن تكون مسئولًا عن أحد الخطوط لتنظيفه من الحشائش الضارة ثم تنتهي وتنظر إلى الخط في أزهى أشكاله لشعور بالانتصار، أن تعمل لثلاث ساعات متواصلة ثم تستريح لتناول الطعام هو إحساس الأبطال الأوليمبيين نفسه عند تسلمهم الميدالية الذهبية، هذا غير بتجمعات أهل القرية في كل ليلة حول النيران مع الشاي والمعجنات، اعتدت أن أهرب من هذه السهرات ولكن الآن أنا من أنشط المشاركين ودائم البحث عن موضوعات جديدة للنقاش، حتى ابنة عمي لم تبد شديدة القبح عندما جاءت لتناولني طعامي في الحقل وقالت في حياء مع حمرة

تعلو وجهها الخمري:

ـــ كللك لقمة.. إنتا شأيان، الحمد لله على عودتك من القاهرة.. لم أكن لأتحمل غيابك أكثر من هذا..

كما ترون انتظمت حياتي وعادت إلى مجراها السابق كقطار خرج عن القضيب ثم تم إصلاحه.

******

خمسة عشر عامًا مضت منذ أن عدت إلى قريتي، أصبحت خبيرًا في إدارة الحقل؛ فسلمني أبي المسئولية ودخل في شبه تقاعد، لدي ثلاثة أبناء من ابنة عمي هم أجمل ما في حياتي، اتجهت إلى التدين؛ فأصبحت لا أترك أي فرض إلا وقد أديته في المسجد. وفى أحد الأيام كلفني والدي بالنزول إلى القاهرة لشراء بعض الأسمدة التي شحت في السوق وقتها. سافرت إلى القاهرة وأنهيت جميع مشترياتي ثم ذهبت إلى القطار لحجز تذكرة العودة؛ فعلمت أن أمامي ثلاث ساعات حتى موعد تحرك القطار، لم أدر كيف أمضي هذه الساعات إلى أن خطرت إلي فكرة زيارة الفيللا التي كنت أعمل بها أيام عملي في القاهرة لرؤية صديقى الوحيد البستاني إن كان لا يزال هناك.

ذهبت إلى عنوان الفيللا، فما زلت أذكره ونظرت من البوابة فرأيته جالسًا على إحدى الدكك كما تركته منذ خمسة عشر عامًا.. مع فرق التجاعيد التي غزت وجهه كالتتار، ناديت عليه فتعرفني على الفور، وكان سلامًا حارًا بين صديقين يريدان

تعويض خمسة عشر عامًا من الفراق الذي حل بينهما فجأة وبدون سابق إنذار، بعد انتهاء السلام جلسنا على الرصيف المواجه للفيلا نتسامر عن الماضي وعما آلت إليه حياة كل منا، مع نظرة من يتذكر الأيام الخوالي قال:

ـــ رغم النذالة التي تركتنا بها بدون أي سلامات ما زلت أحبك.

ـــ لم يكن بيدي حيلة صدقني، وددت لو ألقيت عليك سلامًا أخيرًا و لم أستطع. ما أخبار ندا وحمدي والدها ومدام فاتن.

ـــ حمدي ومدام فاتن تطلقا بعد عام من رحيلك و لم نسمع عنها شيئًا بعد ذلك، أما ندا فحكايتها حكاية، لا أصدق أن تمر ندا طيبة القلب بما حدث لها.

بدأ القلق يغزوني وسألته:

ـــ ما الذي حدث لها لقد كنت أعشق هذه الصغيرة؟

ـــ ما حدث هو أن كبرت ندا لتصبح شابة بارعة الجمال في سن الزواج، تقدم لخطبتها الكثيرون ورفضتهم إلى أن أجبرها والدها على الزواج كما سمعنا من أحد أبناء رجل أعمال من الصعيد.

ـــ رجل أعمال من الصعيد؟ ولماذا من الصعيد ألقلة العرسان في القاهرة؟

ـــ كانوا يسكنون في القاهرة ولكن كما سمعت أنهم من أغنياء الصعيد، وأراد والدها إتمام هذه الزيجة للاستفادة من تجارة والد العريس بعد أن بدأت الديون تتراكم عليه وأصبح مهددًا بإعلان إفلاسه والاستيلاء على أملاكه من خلال البنوك.

ـــ وما هو مصير هذه الزيجة؟

ـــ تم الطلاق في ليلة الدخلة، لم يجدها العريس بكرًا؛ فطلقها بالثلاثة وكانت فضيحة كتبت عنها الجرائد، أنا عن نفسي لا أصدق هذا الكلام، فقد نشأت ندا أمامي وأثق بأخلاقها كما أثق بأخلاق أولادي.

هنا أسقط في يدي، هل.. هل.. لا لا يمكن، بصعوبة شديدة ابتلعت لعابي وكأنه تحجر في حلقي الذي جف تمامًا كصحراء جرداء.. أنا السبب، صديقي العجوز لا يصدق هذا الكلام لأنه يثق بأخلاقها، ولكن من تكلم عن الأخلاق، عملية اغتصابها التي تمت من خمسة عشر عامًا ما زالت تلاحقها كأنها وشم تم دقه داخل جلدها ولا يمكن انتزاعه، لم يكن يكفي الألم النفسي والعاطفي الذي حكم عليها أن تمر به؛ بل عاد ليفسد زيجتها ويسيء إلى سمعتها في الجرائد.

ـــ بعد الطلاق ظلت لأسبوعين تبكي وتصرخ أنها بكر وبريئة إلى أن أدخلها والدها مصحة عقلية لمعالجتها؛ فلم يعد يوجد من يستطيع تهدئتها أو السيطرة عليها.

يبدو أن الألم النفسي والعاطفي ثم إفساد زيجة وفضيحة في الجرائد لا يكفي، يجب أن يكلل بمصحة عقلية الله وحده يعلم ما نتيجتها.

ـــ وهي في المصحة أتى لخطبتها صديق رافقها أيام الجامعة.. وكانت قد تركته لسوء معاملته لها ولضربها أمام جميع أصدقائهم، قابل والدها وأخبره أنه من أخطأ معها ويريد إصلاح ما أتلفه

ويتزوجها، فوافق والدها على الفور.

حين وصل إلى هذه النقطة؛ كان وجهي قد استحال إلى الأزرق، وشعرت بأعراض التوقف عن الإدمان التي اختبرتها منذ خمس عشرة سنة قد قررت زيارتي في هذا الوقت، حاولت التكلم حتى أطلب منه السكوت؛ لأني لم أعد أتحمل المزيد و لم تطعني عضلات فكي التي تسمرت مع باقي أعضاء جسدي مما أسمعه.

ـ عندما علمت ندا بقرار تزويجها من صديقها منذ أيام الجامعة؛ ظلت تصرخ وتتوسل أن يبعدوه عنها وأنه لم يلمسها في حياتها ولكن لا حياة لمن تنادي، غصبها والدها على الزواج منه والعيش معه. رأيي أن صديقها الذي اعترف بغلطته معها كاذب، أولًا لأنني أثق بها تمامًا، ثانيًا لأنني رأيته أكثر من مرة وشعرت بالشر في عينيه، عندما تصبح في مثل عمري تستطيع أن تقرأ الناس ككتاب مفتوح، وهذا الشاب لم يستطع تخطي هجر ندا له في الجامعة؛ فأراد أن يستغل موقفها ويتزوجها غصبًا عن إرادتها.

بدون التفوه ببنت شفة.. تركت صديقي القديم و لم ألتفت إلى نداءاته واستغرابه من تركي له بدون أي كلمة أو تحية، بالنسبة له كان تجاذب أطراف حديث ونميمة عن معارف مشتركين بين صديقين قديمين، بالنسبة لي كانت مياهًا مغلية صبت في جسدي وزحفت حتى وصلت إلى عقلي؛ فزادت حرارته إلى أن انفجر و لم يعد قادرًا على العمل أو التفكير مرة أخرى. قرأت في الإعلان أنكم مؤسسة عالمية وأنكم ساعدتم الكثير من الناس على التكفير

عن أفعالهم وعودتهم إلى العيش بطريقة طبيعية ولكن أستحلفكم بالله.. هل رأيتم من هو في مثل موقفي؟ كيف يمكن لأي شخص في العالم أن يعوض هذه الفتاة عمّا مرت به بسببي وبسبب إهمالي، ناهيك عن تخليصها من الحياة التي وضعت بداخلها عنوة وسمعتها التي أصبحت في الأرض ولا يمكن إصلاحها، لولا تحريم الانتحار لانتحرت بدون أي تردد، ولكنني لا أريد أن أموت كافرًا، أنا تحت تصرفكم.. ائمروني بأي شيء وسأنفذه شريطة أن يساعد ندا ويعوضها عمّا حل بها.

الفصل السادس

عندما أنهى حسنين حديثه خلت القاعة من الأصوات عدا صوت نحيبه وبكائه بعد تذكره ندا وما وصلت إليه حالها منذ الحادثة المشئومة إلى هذه اللحظة، لم ينتظره رجل الدين حتى ينتهي من حالة البكاء التي سيطرت عليه:

— يا بني لا تحزن ، الندم مطلوب.. ولكنه لا يكفي ويجب أن يصحب دائمًا بالعمل اللازم لإثبات صحته وصدقه، قد تبكي وتذرف الدموع أنهارًا ثم تنسى بعد بضع ساعات ما كان يبكيك وتكمل حياتك كأن شيئًا لم يكن، وقد لا تذرف دمعة واحدة ولكن تكرس حياتك للعمل الصالح تعويضًا للأذى الذي اقترفته في الماضي. ليس معنى كلامي ألا تبكي، ولكني أريد تأكيد أهمية الأفعال، ومن ناحيتنا سوف ندرس قصتك كاملة للإتيان بالتصرف المناسب في حق هذه الفتاة.

وكالمرة السابقة وضع يده بداخل الطبق الذي قلّ عدد الأسماء بداخله للعبث به وإخراج اسم آخر لسماع اعتراف جديد.

— فاطمة .

اعتدلت هند في مجلسها وقت سماع الاسم المزيف الذي أرسلته مع بياناتها وقت الاشتراك، لم تدر سبب الرعشة التي انتابتها عند سماعها للاسم.. فقد هيأت نفسها نفسيًا وجلست أمام المرآة مرارًا تحكي قصتها حتى لم تعد تشعر بانزعاج من تذكرها لماضيها من كثرة ما تدربت على ترديده أمام مرآتها، لم تترك النداء يتعجلها فصبت لنفسها كوبًا من العصير، رشفته على مهل ثم بدأت في الحديث...

الفصل السابع

لا أعلم كيف أبدأ قصتي ولا من أين، أحاول ترتيب الأفكار بداخل عقلي، ولكن دائمًا ما ينتابني الشعور بوجود قطعة ناقصة لا أذكرها ولكني أشعر بأهميتها، سأبذل قصارى جهدي حتى لا أنسى شيئًا وتستطيعوا استيعاب قصتي من البداية وبدون أي اختلاط.

الحب الذي يجعلك تقدم تضحيات لم تتصور أنها في استطاعتك هو سبب وجودي اليوم، حب المراهقين الأفلاطوني الذي يتخلل داخل أعضائك فيغير حواسك لتصبح ملكًا لشخص واحد.. وفي حالتي كان هذا الشخص هو عمر. عمر ابن حارتنا، عمر ذو البشرة السمراء والشعر المجعد الملفوف والنغزتين بجانب شفتيه.. متوسط الطول مع جسد قوي بارز العضلات لطالما أحببت بروزها كهرم صغير من فانلته منتصفة الأكمام، عمر الذي لا يمكن أن يفرط في السلسلة حول عنقه والأسورة التي تحيط بساعده، عمر الذي كنت على استعداد لإعطائه عمري ولكنه فيما يبدو لم يكن يكفي.

أحببت عمر ابن حارتنا منذ أن كنت في العاشرة، كان يزورنا

مع والده العامل الذى لديه القدرة على تصليح أي شيء بالمنزل.. سباكة وكهرباء وتنكيس، وبالتأكيد لم نكن نستدعيه إلا عندما يهدد العطب حياتنا فتصل مياه الحمام إلى غرف نومنا وتنقطع الكهرباء بلا عودة ونشعر بقرب سقوط السقف فوقنا.. وقتها فقط يطلب أبي من والد عمر زيارتنا لإصلاح ما تلف، ويفاصله في يوميته إلى أن ينزل إلى السعر الذي يريده والدي فيتركنا ساخطًا مع صوت عالٍ يلعن فيه الجيرة القذرة.. فالفقر كان عنوان هذا الفصل من حياتي. منذ أن كان عمر طفلًا في العاشرة وقد كان رجلًا بكل معاني الكلمة.. لطالما أحببت منظره وهو يقوم بمساعدة والده ومناولته أدواته الثقيلة، وعندما وجدته معي في المدرسة الإعدادية خفق قلبي من أجله وبدأنا أحاديثنا التي تطورت إلى علاقة حب مراهقين لا يريان أمامهما غير المعشوق الذي يصبح الهدف الوحيد للحياة، أو هكذا أصبحت وظننت أنه يشعر بمثل ما أشعر به. لم تكن عائلتي متدينة ولكن كنا شديدي التمسك بالتقاليد كمعظم أهل حارتنا، وبالتالي كانت علاقتنا سرية تقتصر على اللقاء قبل وبعد اليوم الدراسي، وفى إجازة الصيف كنت أبذل الكثير من الجهد لاختلاق مشاوير وهمية تسمح لي برؤيته.

كان يومي الطبيعي في فصل الصيف يبدأ بالاستيقاظ في الثامنة على صوت صراخ أمي وتوسلها لأبي ليتوقف عن ضربها كعادته عندما لا يكون رائق المزاج، فيبدأ في صفعها على وجهها ويلعن اليوم الذي تزوجها فيه، ثم يهددها بقتلها إن لم تأت له بمزيد من

النقود لحاجته لها، وفي النهاية يخرج ويصفع الباب خلفه ذاهبًا إلى زوجته الثانية؛ ليكمل مسلسل ضرب الزوجات والحصول على أموالهن لشراء الحشيش الخاص به. أمي هي أكثر نساء أهل الأرض غلبًا.. في الصباح يتم ضربها بدون أي سبب، ثم تذهب للعمل في المنازل ولا تعود قبل الثامنة مساءً لتعطي كل ما حصلت عليه لزوجها العاطل عن العمل المتزوج من اثنتين أخريين غيرها، وإذا سألتها لماذا عليها تحمل كل هذا تجيب بصوت يظهر بجانبه صوت عبيد أيام الجاهلية كملوك وأمراء: «يا بنتي وهل أمامي خيار آخر؟ أبوكي يمكنه قتلي وقتلكم جميعًا»، قاصدة بجميعًا أخواتي الثلاث، فقد كنا أربع بنات وأنا البكر، هذا غير أخواتنا من الزوجات الأخريات اللآتي لم نرهن في حياتنا.. وكما يمكنكم التنبؤ؛ أحببت أمي كثيرًا وكرهت أبي كره الصهاينة للعرب.

بعد مغادرة أبي وأمي المنزل؛ أنتظر مرور ساعة حتى أتأكد من عدم رجوعهما، ثم أخبر أخواتي بنزولي لشراء بعض المستلزمات وأذهب للقاء عمر. لقاءاتنا تتم في مقهى شديد القذارة بعيد نسبيًا عن حارتنا لمنع التساؤلات والنميمة التي يعشقها الناس حتى النخاع، أن يتقابل عشيقان في مقهى معظم رواده من العمال ولا يقدم غير الشاي والقهوة والشيشة، فلا بد أنهما أتعس عاشقين في التاريخ، ولكن لسبب لا أدريه كانت أسعد أيام حياتي.. أنظر إلى وجهه فلا أرى شيئًا آخر.. كأنك جالس على جهاز كمبيوتر واستبدلت الخلفية بشاشة سوداء، يتحدث عن مشاريعه التجارية

التي ستدر علينا دخلًا محترمًا، يتحدث عن سفرنا لزيارة أوروبا، يتحدث عن سفرنا للعيش بأمريكا، فأميرة مثلي على حد قوله ليس لها مكان في بلدنا القذر، ويجب على من يتزوجها أن يأخذها إلى بلد تستحق جمالها، وكمراهقة ساذجة حمقاء بلهاء وجميع كلمات المعجم التي تعطي المعنى نفسه يرجف قلبي لسماعه يتحدث عن كلينا في خططه المستقبلية، وكمغفلة صدقت المشاريع التجارية المزعومة التي سوف تخرجنا من حارتنا الفقيرة إلى أوروبا وأمريكا.. أصبحت أحلام اليقظة تشغل معظم يومي وأصبحت أنتظر اليوم الذي سيأتي فيه عمر على جواده الأبيض لخطبتي ولإخراجي من حياتي التعيسة، وبالتالي كانت النتيجة هي غرقي في حبه إلى أذني، وتحولت من مراهقة إلى عاشقة تنفذ كل ما يطلبه عشيقها حتى لو طلب منها القفز من برج القاهرة. عندما أتذكر هذه الأيام أشعر بالغباء ويزداد كرهي لجميع الرجال الذين يظنون أن المرأة كائن خلق لإمتاعهم وخدمتهم، ولا يوجد أي اختلاف بينه وبين الدواب، فمن الدواب من يركب للمتعة ومنها من يعمل في الحقل للخدمة ومنها سعيد الحظ الذي يذبح للطعام، إذا دققتم في أمثلة الدواب الثلاثة ستجدون من الرجال من يتعامل مع المرأة على نحو قريب.

******

ظللت في علاقتي مع عمر لثلاث سنوات كانت الأسعد في حياتي، إلى أن جاء اليوم الذي كنا نجلس فيه على المقهى وقال:

— حبيبة قلبي.. لي عندك طلب..

ابتسمت قائلة:

— حبيبي تعلم جيدًا أنني تحت أمرك.

ارتسمت على طرف شفتيه ابتسامة من يعلم مكانته عند الفتاة التي تحبه:

— أريد الخروج في مكان غير هذا المقهى.. فهو لا يليق بك، اليوم هو عيد العشاق Valentine وقد جهزت طاولة في أحد المطاعم الفخمة للاحتفال بهذا اليوم من أجلك.

بدأ قلبي في الخفقان بسرعة لم أعهدها من قبل، أردت الموافقة والذهاب معه فورًا.. ولكن اعترض عقلي على هذا القرار المتسرع، وبدأ في تذكيري بوالدي إن عاد إلى المنزل ولم يجدني فستكون نهايتي، ولكن هناك احتمال ألا يعود إلى المنزل قبلي وأن تضيع عليّ فرصة الاحتفال في مطعم لم ولن أدخله مرة أخرى، لذا كمراهقة عاشقة اتخذت قراري سريعًا كسرعة قرارات العرب إذا سئلوا عن إسرائيل؛ فتجد جوابهم في أقل من فيمتو ثانية وفي نفس واحد «السلام خيار استراتيجي»، بالسرعة نفسها كان جوابي:

— هيا بنا.

وصلنا إلى المكان المزعوم في ربع الساعة بعد ركوب المواصلات شديدة الازدحام كالعادة، دخلنا إلى إحدى العمائر؛ فسألته عن كيفية وجود المطعم داخل البناية وليس على الشارع؛ فأجابني أن جميع المطاعم الراقية بداخل البنايات وفي أدوار عالية.. وبالتأكيد

صدقته بدون أدنى شك، فكيف لي أن أعرف أي شيء عن المطاعم الفاخرة، رن الجرس وفتح لنا رجل في منتصف العشرينات غليظ الوجه والملامح ورث الثياب، أردت أن أسأل عمر «هل هذا هو الجرسون؟» لأنه شديد البعد عن الأناقة التي عهدت عليها الجرسونات في الأفلام، ولكن لم تتح لي الفرصة، ففي اللحظة نفسها دخل عمر إلى الشقة ودخلت خلفه ثم أغلق الرجل الباب خلفنا.

ما حدث بعد ذلك صعب الوصف والتخيل.. ودائمًا ما تقفز الدموع من عيني عند تذكره، طبيعي أن يتم الحكم عليّ كمغفلة أن أذهب مع أحد الفتية إلى شقة المفروض أنها مطعم راق، ثم أجد شابًا أجرب يفتح الباب ولا أشك أنني أجرُ إلى وكر لاغتصابي، فقط إذا علمتم مقدار حبي وثقتي في عمر لعذرتموني. جرى الموقف كالتالي.. وجدت داخل الشقة ثلاثة آخرين بجانب من فتح لنا الباب، وقف كبيرهم لتحية عمر ثم أخرج من جيبه حفنة من النقود وسلمها إليه، لم أفهم ماذا يحدث، وأردت سؤال عمر «أليس من المفترض أن تعطيه النقود وليس العكس؟»، ولكن ما حدث بعد ذلك فسر كل شيء.. أخذ عمر النقود ثم سلم على الرجل وشكره كأنه رجل أعمال انتهى لتوه من صفقة رابحة، نظر إليّ نظرة لم أدرِ هل هي شفقة أم نظرة كنظرة الجزار إلى الخروف قبل ذبحه، ثم فتح الباب وانصرف. بالتأكيد حاولت التحرك كي ألحق به ولكني فوجئت بيد أحدهم ممسكة بذراعي.. ثم بدأ فيلم

الاغتصاب الذي لو سجل وتسرب على الإنترنت للاقى رواجًا كبيرًا وسجل أعلى نسب مشاهدة.. أربعة بلطجية وفتاة عذراء..

لم يستوعب عقلي البريء وقتها ما يحدث، كل ما أذكره أنني وجدت نفسي ملقاة على الأرض ويتم تمزيق جميع ملابسي بداية من الحجاب إلى ملابسي الداخلية حتى أصبحت عارية تمامًا، وبدأ الألم الجسدي الناتج عن الإمساك بصدري ومناطق أخرى من جسدي والضغط عليها في إيقاظي من حالة عدم الفهم التي اجتاحتني، وقتها فقط علمت أنه يتم اغتصابي.. وفي اللحظة التي أدركت فيها هذه الحقيقة البادية كالشمس تم حملي ووضعي على الأريكة.. ثم بدأ الألم الرهيب الذي لا أعلم كيف تتحمله جميع نساء العالم، لم أنجب من قبل، ولكنني واثقة أن ألم الولادة لا يختلف كثيرًا عن هذا الألم.. شعرت بتمزق حاد بين فرجي وكأن سكينًا اخترقني.. ثم فقدت الوعي.

******

عندما وصلت هند في قصتها إلى هذه النقطة توقفت عن الكلام وأجهشت في البكاء، تدخل أحد رجال الدين قائلًا:

ـــ المصائب هي اختبارات من عند الله حتى نتبوأ مكانة أعلى في الآخرة، إن صبرنا على مصيبة في دنيانا الفانية؛ استبدلها الله لنا بمكانة أفضل في الآخرة الباقية إلى الأبد، تحاملي على نفسك لتنهي ما بدأتِه نحن هنا لكي لا تجتازي الصعوبات وحدك، نحن موجودون للأخذ بيدك، جففي دموعك وأكملي حتى يتسنى لنا مساعدتك.

بعد هذه الكلمات تماسكت سحر حتى توقف سيل الدموع المنهمر فجففت دموعها، ثم صبت لنفسها كوبًا من العصير رشفته على مهل وعادت لإكمال قصتها.

******

عندما استيقظت وجدت نفسي مستلقية على الأرض بجانب صندوق قمامة كبير وكان الليل قد خيم، ألم شديد يجتاح جميع أعضاء جسدي، نظرت إلى ملابسي فلم أجد غير جلباب واسع هو كل ما أرتديه، حتى قدمي كانتا حافيتين، رويدًا بدأ عقلي يسترجع آخر أحداث عاصرها قبل إصابته بالإغماء أو فقدان الوعي، وبدأت حالة البكاء الهيستيري لما أصابني، لا أعلم هل سبب بكائي هو فقداني لعذريتي التي تعتبر في المناطق الشعبية أهم من الفتاة نفسها، أم جسدي الذي هتك على أيدي أربعة رجال استحلوه لأنفسهم بدون موافقة صاحبته، أم الآلام الجسدية التي أشعر بها كالكدمات في نهدي وفخذي وبين فرجي الذي تجلطت الدماء بداخله وحوله، أم ما يمكن أن يقدم عليه أبي عندما أعود للمنزل في هذه الثياب وهذا الوقت من الليل، أم أنني أبكي عمر؟!

عمر.. عمر.. عمر.. عمر الذي نجح في استئصال أجزاء من عقلي ولم يعد ممكنًا استرجاعها كالثقة بالناس والحب وإمكانية وجود رجال شرفاء في هذا العالم، ماذا فعلت يا عمر.. كنت تعلم مقدار حبي لك وتمسكي بك، لقد عشقتك كما لو أن حياتي

متوقفة على هذا العشق، ليتك قتلتني وقمت ببيع أعضائي فأموت وأنا ما زلت أحبك، لقد قمت ببيع جسدي الذي لم أتمن أن يلمسه أحد غيرك.. بعته لأربعة آخرين بثمن بخس، ألم يكفك حبي واستعدادي لترك منزل أهلي من أجلك، لم تحبني يومًا، كنت مجرد وسيلة للتسلية في البداية، ثم أصبحت وسيلة للحصول على بعض المال.. لا أدري ما العمل الآن، أمامي ثلاثة خيارات، أولًا أن أعود إلى المنزل داعية الله ألا ألقى حتفي على يد أبي وهو يضربني، ثانية أن أنتحر وأستريح من هذه الحياة التي لم يعد لي مكان بها، ثالثًا أن أجد من يأويني وأبدأ حياة جديدة في مكان آخر. وقد كان الخيار الثالث هو اختياري، فتحاملت على نفسي لأستطيع الوقوف متجاهلة الألم الذي يعتصرني بين قدمي وعدم استطاعتي المشي بطريقة سوية من حدته، ولكنني عرفت وجهتي وبدأت طريقي إليها.

******

ها أنا ذا على قيد الحياة، أجلس على إحدى الطاولات التابعة لكباريه في شارع الهرم، أرتدي سروالًا من الجينز شديد الالتصاق بجسدي كأنه قطعة من جلدى، مع قميص ضيق مفتوحة أزراره العلوية والكثير من الماكياج وأحمر الشفاة لزوم الإيقاع بالزبون كما أخبروني حين بدأت العمل. إنه اختيارى الثالث كما أخبرتكم؛ أن أجد من يأويني وأبدأ حياة جديدة، وبالتأكيد

لستم سذج حتى تظنوا أنني سأعمل بشرف حتى أكوّن نفسي وأبدأ مشروعى الخاص.. شكرًا لا أريد الانتظار عشر سنوات على الأقل. حين أفقت من إغمائي وقررت عدم الرجوع إلى المنزل وإيجاد مأوى استرجعت جميع الأفلام التي أعرفها.. وظللت أبحث عن شخصيات واجهت نفس الموقف الذي أستمتع به الآن، وبعد اعتصار ذاكرتي حتى جفت؛ علمت أن الخيار الوحيد أمامي هو العمل بشارع الهرم مؤقتًا إلى أن أجد عملًا شريفًا.

ذهبت إلى شارع الهرم ونزلت من الميكروباص مع الكثير من السباب عندما علموا أنني لا أملك أي نقود، دخلت أول كباريه وجدته وأخبرتهم ببحثي عن عمل مع مأوى واستعدادي لعمل أي شيء، ضغطت على مخارج الحروف مع قولي «استعدادي لعمل أي شيء».. سافلة؟ منحلة؟ يمكنك الحكم عليّ كيفما شئت لا أهتم، فعندما تتم خيانتك من قبل من أحببت وتتم سرقة عذريتك ومعها براءتك.. وقتها ستتفهم موقفي. عملت بهذا الكباريه وقاموا بتوفير غرفة صغيرة كنت أنام فيها مع فتاتين أخريين تعملان بالكباريه نفسه.

بدأت سلم العمل من أوله.. ومع بذل الجهد تمت ترقيتي كأي موظف في شركة محترمة، أولًا تم تنظيفي وإعطائي بعض الملابس، ثم بدأت التمرين الذي استمر ليومين فقط على حمل صواني محملة بزجاجات البيرة والويسكي، عندما أثبت كفاءتي وعدم تعثري بدأت العمل وقد تم تنبيهي إلى ثلاثة أشياء، أولًا الاهتمام بملابسي

وماكياجي كي أبدو في صورة مشرفة ولافتة أمام الزبائن، فهذا الكباريه لديه سمعة يجب الحفاظ عليها، ثانيًا ألا ألتفت أو أصرخ إذا لمسني أحد الزبائن، فكما تعلم نحن نعمل في كباريه وهذا وارد، ثالثًا ألا أقيم أي صداقات مع رواد المكان.. وأي زبون يرغب في الحصول عليّ يجب عليه مخاطبة المدير، ولا داعي للذكر أنني لا أملك رفاهية الرفض إذا رغب أحد الرواد في تذوقي.

عملت لمدة أسبوعين في هدوء إلى أن ناداني المدير ليخبرني أنني لن أكمل العمل الليلة، وسأذهب مع أحد الزبائن لقضاء ساعتين معه وسيعيدني، رغم أنني أتوقع حدوث هذا الموقف عندما بدأت العمل في الكباريه ولكنني توترت، هذا التوتر الذي ينتابك عند تسلمك ورقة الامتحان، أنت تعلم جيدًا أن لديك امتحانًا وقد قضيت الكثير من الوقت في المذاكرة ورغم هذا يجتاحك الإحساس بالتوتر، أخبرت المدير أنني جاهزة فأرسلني مع الزبون.

مقارنة بما حدث منذ أسبوعين أو ثلاثة؛ كان الرجل شديد الذوق والاحترام، قبل الذهاب إلى منزله ابتاع عشاءً من الكباب والكفتة لكلينا.. عشاء لم أتناوله في بيت أبي من قبل، شعرت بكثير من الامتنان تجاهه وذاب كل التوتر بيننا. عندما دخلنا إلى غرفة النوم لم أدرِ ماذا أفعل فوجدته يعطيني بذلة رقص قصيرة وشفافة طالبًا مني ارتداءها والبدء في الرقص، خلعت ملابسي أمامه في خجل شديد وارتديت البذلة التي لا تحسب ضمن الملابس من قصرها وقماشها الشفاف، رغم حادثة اغتصابي؛ ما زال الخجل

يجتاحني لتجردي من الملابس أمام رجل. عندما أدار الكاسيت وانبعثت الموسيقى في أرجاء الغرفة احتاحتنى طاقة غريبة، فبدأت أرقص كأنني في حفلة رقص عالمية، نسيت كل ما هو متعلق بحياتي البائسة وانهمكت في الرقص والموسيقى.. نسيت الكباريه، المدير، الزبون الجالس أمامي، عمر، الرجال الأربعة وشعرت براحة لم أشعر بها من قبل، في خضم الرقص تم وقف الموسيقى ووجدت الزبون ينظر إليّ بشهوة حيوانية وقال: «رغم الكثير من النساء التي مرت عليّ؛ لم أر مثل رقص هذا اللحم الأبيض»، ثم في اللحظة التالية انقض عليّ كما ينقض الأسد على غزالة مسكينة؛ فوجدته ينزع عني بذلة الرقص في عنف.. وتعرفون البقية.

******

حققت ليلتي الأولى مع هذا الزبون في منزله نجاحات كبيرة، ليست نجاحات خاصة بالسرير، ولكن الزبون أخبر المدير أنني موهوبة في الرقص، ومرة أخرى ناداني المدير وطلب مني الرقص أمامه.. رقصت أمامه إلى أن أطفأ الموسيقى وأخبرني أنني ابتداءً من الغد لن أعمل في تقديم الطلبات، وسيكون عملي رسميًا إحدى راقصات الملهى الأساسيات. لم أعلم هل يجب أن أسعد بهذا الخبر أم لا، مشاعر متضاربة انتابتني.. هل يجب السعادة بالتقدم في العمل وزيادة دخلي وكسبي لثقة وإعجاب المدير، أم يجب أن أشعر بالخجل من الانحطاط الذي أصبحت أتقنه.. فلن أصبح نادلة وفي بعض الأيام أخرج مع أحد الزبائن، سأصبح الهدف

الأساسي للقادمين إلى الكباريه، وستصبح الأيام التي أبيت فيها خارج الكباريه أكثر من الأيام التي أبيت فيها بغرفتي، لا أعلم ولا أهتم.. فكل ما فكرت فيه وقتها المال الإضافي الذي سأحصل عليه، وقررت إرسال جزء منه إلى أمي وإخوتي لمساعدتهم عن طريق أحد عمال المكان كي لا يعلموا مكاني.

إذا عملت في بنك محترم ستقابل عملاء أثرياء يتعاملون على حساباتهم، في استاد الكرة ستقابل نجوم الرياضة، في شركة إنتاج سترى نجوم سينما، في كباريه سيكون بختك من العرب القادمين إلى مصر لصرف نقود لا يمكن لنا تخيلها في حوزة شخص واحد، يصرفون نقودهم كأنها ممسوسة ويجب التخلص منها في أسرع وقت. وكما تعلمون فقد كان بختي مرتبطًا بالعرب الذين يريدون استئجار راقصة الكباريه بأي ثمن كان، لذا فكما ترون اتحدت نقود النقطة التي ترمى عند قدمي خلال الرقص، ونقود الليالي الحمراء التي تبدأ بالرقص وتنتهي بتجريدي من ملابسي والاستمتاع الكامل بجسدي، مع النقود التي أتقاضاها من الكباريه واستطعت دفع القسط الأول من شقة صغيرة وأترك سكني مع الفتيات، ثم أتبعتها بسيارة قديمة ولكنها تفي بالغرض.. عندما شعرت بامتلاكي شقة وسيارة سيطرت على كياني فكرتان، الأولى هي نقل أمي وأخواتي للعيش معي بدون علم أبي، لا أعلم هل سيتقبلن عملي أم لا ولكن بالتأكيد لن يرفضن العرض.. لا أحد يرفض الهروب من العيش مع شخص كوالدي، سيصبحن كمن رفض الخروج من السجن لأنه لا يدري إن كان العالم خارجه أفضل أم لا، الفكرة الثانية

التي تملكتني حتى أصبحت شغلي الشاغل هي الانتقام.. الانتقام الذي كتب عنه الكثير من الروائيين وقامت من أجله الكثير من الحروب وارتكبت على شرفه جرائم بعدد أيام الدهر، الانتقام الذي يقال إنه طبق يفضل أن يقدم باردًا، الانتقام الذي يقولون إنه اعتراف بالألم وأنا أعترف أن عمر جرحني جرحًا لا يمكن مداواته، أعلم استحالة اختفاء الجرح، ولكنني سأعمل ما بوسعي لتخفيف الألم، والخيار الوحيد الذي تفتق عنه عقلي هو الثأر.

******

قررت إرجاء خطوة نقل أمي وأخواتي معي في المنزل إلى أن أنتهي من انتقامي، عندما ينتهي الانتقام ستطوى معه صفحة الماضي وسأبعث إلى الحياة من جديد. منذ هذا اليوم المشئوم الذي أمضيته برفقة أربعة شباب.. أعيش كأني تحت التخدير لا أشعر بمن حولي، كأني آلة تخرج للرقص في المساء وتمضي أمسية في شقة أحدهم، ثم أعود إلى غرفتي للنوم منتظرة اليوم التالي، لا أعلم هل أنا سعيدة أو راضية أم لا.. فلا يوجد ماكينة في أحد المصانع لها رأي فيما تفعله وكذلك كنت في هذه الفترة. ولكن عندما بدأ شبح الانتقام يلوح في الأفق شعرت بالحياة تدب في روحي، بدأت أرى وجه عمر يحترق في كل جنيه أجنيه لشعوري بقرب الانتقام، لكي أنتقم أحتاج إلى المال، فبالتأكيد لن أذهب إلى عمر بنفسي وأقتله ثم يتم القبض عليّ كأفلام الدرجة الثالثة مع التقاط صورة تنافس صورة الرقم القومي في قبحها، سأستأجر من يقوم بهذا العمل لأجل مقابل مادي، فهو محترف لن يتم القبض عليه.

عندما تعمل في كباريه ستجازى بأن تتعرف على تجار مخدرات وقوادين وبلطجية، والفئة الأخيرة هي ما بدأت أسأل عنها إلى أن دلني أولاد الحلال على أحدهم مستعد لبيع روحه للشيطان وليس مجرد القتل لأجل بضعة آلاف من الجنيهات، «غرزة» هو الاسم الذي طلب مني مناداته به ولم أرد له كلمة:

ـــ غرزة، أريدك في مهمة مصيرية، خفف ما تشربه حتى تستطيع استيعاب ما سأطلبه منك.

ـــ يا جميل لا يوجد ما يمكن أن يذهب بعقلي بعد هذا العمر، ما أشربه أصبح كالهواء للحياة وليس للدماغ.

لم أفهم ما يعنيه ولم أهتم، خفضت صوتي وأنا أخبره:

ـــ أريدك أن تقتل لي شخصًا.

ابتسم ابتسامة سمجة لزجة تثير الغثيان.. ظهرت معها أسنانه السوداء المفقود بعضها وقال:

ـــ اؤمر يا جميل، نحن هنا لتحقيق العدالة والحكم على من يغضب قمر مثلك هو الإعدام.

ـــ يدعى عمر فتحي يسكن بـــ **********، لا أريد مجرد قتله، أريد تعذيبه قبل القتل.

ـــ أعطيني يومين فقط لأستفسر عنه وسأوافيك بالأخبار.

******

تركت غرزة وذهبت لأبدل ملابسي ببذلة الرقص؛ فلم

يتبق على فقرتي غير نصف ساعة، بدأت أفكر بأمي.. الوحيدة التي أحبها من قلبي، ملاك بكل معاني الكلمة؛ لولاها لانتحرت وأخواتي الثلاث.. فلن نطيق العيش مع أبي من دونها ساعة واحدة، ثم قررت أن أستيقظ في اليوم التالي مبكرًا لأزور حارتنا وأراها ولو من بعيد، أخبرني غرزة أنه سيعطيني خبرًا عن عمر في خلال يومين، وسأعطيه بضعة أيام أخرى لتنفيذ ما اتفقنا عليه.. ثم أنقل أمي وأخواتي معي بالمنزل.

استيقظتُ مبكرًا وذهبت إلى حارتنا مرتدية النقاب كي لا يتعرف إلي أحد، أعرف أن أمي تغادر المنزل عند نحو التاسعة، فذهبت أمام منزلنا وانتظرتها. ها هي تخرج من بوابة المنزل.. لم تتغير البتة، نفس الهم المرسوم على وجهها كأنه رسوم الفراعنة على جدران إحدى المقابر، ولم تتخل عن الزي الرسمي للنساء المطحونات المكوّن من خمار فضفاض أجرب اللون، ممسكة بيدها أختي الصغرى، ذهبتا إلى أول الشارع فابتاعت أمي بعض الحلوى وأعطتها لأختي التي أشرق وجهها عن ابتسامة تشعر معها أنها حازت الدنيا وما فيها وليس بعض الحلوى، رجعتا إلى بوابة المنزل فقبلتها أمي وتركتها تصعد الدرج ثم انصرفت لتبدأ عملها اليومي.

كم أحبك يا أمي.. ترسمين دائمًا البسمة على وجوهنا وأنت لا تعرفين ما هي البسمة من طول غيابها عنك، في هذه اللحظة رن جرس هاتفي المحمول وأضاءت شاشته برسالة من غرزة، قرأت الرسالة التي تطلب مني مقابلته في نفس المقهى الذي قابلني فيه المرة

السابقة، ركبت سيارتي واتجهت إليه.

دلفت إلى المقهى فوجدته جالسًا في ركن بعيد، ذهبت وجلست على الكرسي المواجه له.

— السلام عليكم، أخبرني أين نحن الآن بعد استخباراتك؟

— لاااا، ظننت أن عمر شخص عادي يمكنني خنقه أو ذبحه بخنجر ثم ألوذ بالفرار، لم تخبريني أنه ممن يعملون عند سيد طيحه، لا يوجد من يمس أحد رجال سيد طيحه ويخرج سليمًا من المنطقة.

أعرف أن عمر مجرم، ولكنني لسبب ما لم أفكر أنه بدأ في اتخاذ الإجرام وظيفة وأصبح يعمل لدى بلطجي معروف، شعرت باليأس يغزوني وظهر جليًا في صوتي:

— أتريد أن تخبرني أنك لن تستطيع قتله؟

— لاااا عيب يا جميل، ليس معنى أن له ظهرًا أنه سيفلت من غرزة، لا أحب من يشكك بقدراتي كل ما في الأمر أنني لن أعذبه قبل قتله، سأنفذ طلبك ولكن بطريقة مبتكرة بحيث يقتل بدون أن أتواجد معه في نفس اللحظة.

— حسنًا يمكنني الاستغناء عن التعذيب، ما الذي ستفعله؟

— اتركي لي هذا الموضوع، المطلوب الآن ثلاثون ألف جنيه..

— هل ستأخذ المبلغ كاملًا قبل التنفيذ؟ ألن تأخذ النصف الآن والنصف بعد الانتهاء؟

— لا يا جميل.. هذه عملية قتل وعقوبتها الإعدام أو السجن مدى الحياة، لهذا تُدفع تكاليفها مقدمًا بالكامل.

— وما الذي يضمن لي أنك لن تأخذ النقود وتختفي بدون تنفيذ أي شيء؟

أجاب بصوت مستفز يذكرك بمن يرتدون زي رجال الدين ويظهرون على الفضائيات مرددين فتاوى عن إرضاع الكبير وتحريم ارتداء القبعات لأنها تشبه بالكفار ليزيدوا عدد مشاهديهم:

— حد الله بيني وبين السرقة، حد السرقة هو قطع اليد والخروج من رحمة الله، أستغفر الله العظيم..

مثل هذه المواقف تجعلك غير قادر على الرد أو التحرك أو حتى التنفس، إذا اختلفت مع أحد على هوية مصر إسلامية أم مدنية ستجدون لغة حوار، أما الاختلاف عن هويتها مدنية أم بوذية وقتها لن يصبح أمامك خيارًا غير الهروب بأقصى سرعة للحفاظ على ما تبقى من سلامتك العقلية، وهذا ما اخترته، بيد مرتعشة أخرجت النقود المتفق عليها من حقيبتي، أحتفظ بالنقود معي منذ أن اتفقت مع غرزة على العملية، أعطيته النقود وقلت:

— ها هو المبلغ كاملًا كما أردت لن أفاصلك، ولكنني أنتظر هاتفك لإخباري بانتهاء كل شيء.

— ضعي في بطنك بطيخة صيفي، كلمة غرزة هي سيف على رقبته، خمسة أيام وانتظري هاتفًا مني.

— حسنا أنتظرك بعد خمسة أيام.

ثم انصرفت عائدة إلى شقتي منتظرة الليل حتى يبدأ عملي.

******

يجثو تحت قدمي ويبكي كفتاة صغيرة تم أخذ دميتها، لن أرحمه ولن ألتفت إلى دموع التماسيح التي ملأت وجهه وعينيه، هذا عمر بعد أن علم أنني حكمت عليه بالإعدام يهين نفسه أمامي من أجل الصفح، كلا وألف كلا لن أضعف أمام تضرعه؛ فهو أسود القلب ويجب القضاء عليه من أجل الكثير من الفتيات اللاتي سيوقع بهن في المستقبل كما أوقع بي.. «أنا انكسرت.. راهنت على حبك واخترت.. وفي النهاية أنا اللي خسرت سبتني وبعدت وقدرت.. أنا انجرفت قتلت فيا مشاعري ورحت».. استيقظت على صوت الموبايل وهو يرن بإحدى الأغاني لمغنية لا أعلم من هي من كثرتهن هذه الأيام، ومع الاستيقاظ تلاشت صور عمر الجاثي على ركبتيه من أمامي وعدت إلى انتظار هاتف من غرزة يخبرني بانتهائه من المهمة، أغلقت هاتفي على المتصل، فهو أحد عمال الكباريه كلفه المدير بمهاتفتي كي لا أتأخر كاليومين الماضيين. منذ لقائي الأخير مع غرزة وأنا أحلم دائمًا بعمر، يتضمنه الحلم في دور المستغيث الجاثي تحت قدمي.. هل هذا هو عقلي الباطن يريدني أن أتراجع عن فكرة قتله؟ أم أنني لا أستطيع الانتظار على سماع الخبر لهذا أنفذه في عقلي؟ أم أنني لا أريد مقتله بعيدًا عني.. أريد رؤيته يتعذب؟ عقلي مشتت.. الآن سأرتدي ملابسي وأذهب للكباريه، فهو المكان الوحيد الذي يصفو ذهني فيه.

بعدما دلفت إلى الكباريه وانتهيت من ارتداء بذلة الرقص؛ رن هاتفي بالرقم الذي يسبب لي الهلاوس منذ ثلاثة أيام، لم يكمل

الهاتف ثانية واحدة من الرنين وقد أجبته:

ـــ ماذا حدث؟

رد علي صوت غرزة الحشاش:

ـــ تمت بحمد الله يا جميل.

ـــ أخبرني ماذا حدث بالتفصيل؟

ـــ لا أستطيع التحدث في هذه الأمور على الهاتف يا جميل، سأختفي لبضعة أيام حتى يهدأ الجو ثم أقابلك إن أردت.

ثم أغلق الهاتف بدون أي مقدمات، طبعًا هو واهم، لن أنتظر بضعة أيام.. ففور انتهائي من هذه السهرة سأذهب إلى حارتنا لأعرف ماذا حدث. وبالتأكيد كانت هذه الليلة هي الأطول في حياتي على الإطلاق.. أنظر إلى الساعة فأجدها الواحدة، أنظر إليها بعد فترة أظنها كافية أجدها الواحدة وسبع دقائق، يا إلهي لماذا تمر الدقائق بهذا البطء.. لو كانت الدقيقة عشر ثوان والساعة ثلاثين دقيقة لانتهيت من هذه الليلة التي لا تريد الانتهاء.. من هذا المغفل الذي قرر أن الدقيقة ستون ثانية والساعة ستون دقيقة، بالتأكيد هو أحد اللوردات الإنجليز الذين لا يتعجلون في أي شيء ويعتبر البرود صفة يفخرون بها ويجودون في أدائها. في النهاية وبعد أن مر دهر من الزمان بداخل عقلي انتهت الليلة، كانت الساعة السادسة صباحًا فذهبت إلى شقتي، انتظرت حتى أصبحت الثامنة وارتديت النقاب ثم ذهبت إلى الحارة.

لحظة أن وضعت قدماي بداخل الحارة شعرت بالكهرباء

في الجو وفي حركة الناس، لم أتأكد من حقيقة شعوري إلى أن وصلت إلى منزل عمر ووجدته محاطًا برجال الشرطة، سحقًا لك يا غرزة ما الذي فعلته.. ذهبت إلى إحدى المتفرجات وسألتها عمّا حدث، وكعادة الكثير من المصريين إذا وجدوا فرصة للكلام والنميمة؛ فإنهم يغتنموها كأنها تذكرة يانصيب رابحة.. بدأت في الحديث:

ـــ صلي على النبي...

لم تترك لي أي مجال للصلاة على النبي كما قالت وأكملت:

ـــ لقد تم تفجير منزل عمر هذا الشاب الذي يعمل عند سيد طيحه لعنة الله عليه، هناك روايتان.. الأولى تزعم أن سيد طيحه هو من فجر المنزل لأن عمر أراد ترك العمل وهو ما لم يتقبله سيد زفت.. فقام بهذا التفجير، الثانية هي أن المسئول عن التفجير جماعة منافسة لعمر وسيد طيحه في تجارة المخدرات التي سوف تقضي على نصف شباب البلد. وفي الحالتين لا يوجد من يبكي عمر؛ فهو من اختار هذا الطريق.. ما يقطع نياط قلوبنا هو وفاة والدته معه وإصابة الست سناء الشغالة بالعمى بسبب الانفجار.

شعرت بدوار ورجفة تجتاحني عند سماعي الست سناء.. وبحثت عن بارقة أمل تبدد الشكوك التي زرعت بداخلي كالشوك في كنزة من الصوف عن طريق سؤالها:

ـــ من هي الست سناء؟

ـــ الست سناء الطيبة والدة الأربع بنات، التي هربت ابنتها البكر منذ بضعة أشهر، تسكن في..

****

أسقط في يدي، ولم تستطع قدماي حملي فجلست على الأرض، يا إلهي الرحيم، ما الذي أقدمت نفسي البائسة على ارتكابه، غرزة أيها الشيطان البشري.. لا.. ليس خطأه.. هو مجرد الآلة التي نفذت.. أمي الملاك الذي يمشي على قدمين لن ترى النور إلى آخر حياتها.. لا أصدق أنني السبب في ذهاب بصر الإنسانة الوحيدة التي أحببت والتي ضحت بالكثير من أجلي.. لماذا تذهب إلى بيت عمر؟ أعلم أنها تعمل في الكثير من البيوت، ولكن هل أصبح عمر يمتلك من المال ما يسمح له بتعيين شغالة لمساعدة أمه؟ يبدو أن نقود المخدرات أكثر مما أتوقع.. لم أستطع تحريك ساكن لخمس عشرة دقيقة.. وحين تحاملت على نفسي ووقفت شعرت بخدر يجتاح عقلي ويشله عن التفكير، من سكات ركبت السيارة وذهبت إلى شقتي، لم أغير أيًا من ملابسي، اتجهت إلى السرير ونمت كما لم أنم من قبل.. كأنني أهرب من واقع غير قابل للتصديق، وتمنيت ألا أستيقظ أبدًا.

****

كما نشعر بالجوع فنأكل، كما تشرق الشمس من المشرق وتغرب من المغرب، كما ترتكب إسرائيل المذابح في حق الفلسطينيين فيسكت العرب، ككل سنن الحياة استيقظت.. حاولت بكل تركيز ألا أستيقظ وأعود إلى النوم ولم أستطع، بدأت بفتح عيناي على حياتي التي تغيرت ملامحها إلى الأبد عن طريق عملية تجميل فشلت

بعد انتهائها.. فأصلحت الجزء المرجو إصلاحه وأتلفت جزءًا أكثر أهمية ووضوحًا للعيان.. ليس أمامي خيار آخر.. وقفت في وجه الحياة من قبل وسأفعلها مرة أخرى، المعطيات هي أنني تسببت في إصابة أمي التي أعشقها والتي تعول ثلاث بنات صغار بالعمى.. لا يوجد أمامي غير نقلهن للعيش معي كما كنت أنتوي.. فأتكفل بأخواتي الثلاث وأعول أمي التي لن تقوى على شيء بعد اليوم، سأجعلها تعيش كملكة وهذا هو الحل الوحيد الذي سيجعلني أمضي قدمًا بعد الذي ارتكبته.

ظننت أنني أنقذها من براثن السفاح الذي هو أبي، ظننت أنها ستحتفى بى وتشكرنى على انتشالها من فك القرش، ظننت الكثير كمراهقة ساذجة تنتظر فارس أحلامها الغنى الوسيم الرومانسى الرقيق الحساس الشهم.. وتهدمت جميع ظنونى عندما ذهبت إلى منزلها وأخبرتها من أنا وأننى سآخذها للعيش معى، فاستقبلتنى بوابل من الغضب لم يكن في اعتقادى وجوده لدى شخص شديد الطيبة[1] كأمى، صرخت قائلة:

— ماذا تظنين نفسك فاعلة؟ بعدما أفنيت عمرى على تربيتك وحمايتك تهجريننى بدون أي علم أو خبر.. ذرفت من الدمع على فراقك لنا أكثر مما ذرفت في عمرى كله ظننتك مت، والآن تعودين بعدما أصبحت ضريرة لا يمكن أن أراك.. أقسم أن حزنى لفقدانك تعدى حزنى عند فقدان بصرى.. أغربى عن وجهى وعودى من حيث أتيت، يمكننى اشتمام رائحة الخمر والعطر من جسدك، هذا

غير شعورى بصدرك الذي ازداد حجمه عند احتضانك لى، لم تزدنى زيارتك غير المزيد من الحزن على الحال القذرة التي وجدتك عليها، نحن فقراء ولكننا نملك كرامة وأخلاق الملوك.

ها هي أمامي طاعنة في السن.. كأن فقدانها لبصرها وحادثة الانفجار قد أضافا المزيد من السنوات إلى عمرها، تصرخ بدون النظر إليّ كجميع الفاقدين لبصرهم فيزيدهم وقارًا وهيبة. لا أعرف ما الذي جرى بعد هذه المحادثة كنت في حالة صدمة، كل ما أذكره أنني عدت لوعيي في الثالثة بعد منتصف الليل خلال تقديمي لفقرتي المعتادة التي تثري الثقافة في المجتمع وتشجع السياحة خصوصًا سياحة عرب الخليج.. هل صدمتي نابعة من تخمين أمي لعملي أم لصدها لي وعدم احتفائها بمجيئي؟ تعددت الأسباب والموت واحد، ظللت أرقص ليلتها بكل ما أوتيت من قوة لعلي أنسى إلى أن فقدت وعيي واستيقظت في شقتي. هذه قصتي أيها السادة.. لا أعلم هل أنا ضحية أم فاجرة، من الممكن أن أكون كلتيهما معًا.. لا يهمني الحكم.. ما يهمني هو عودة المراهقة الفقيرة بداخلي، تلك التي تحب كأن لم تجرح من قبل وتعيش بتفاؤل لا يملكه الأثرياء أنفسهم. أريد أمي، لا أعلم ما أريده منها ولكن أريدها أن تتفهم موقفي، بالتأكيد لن أخبرها أنني السبب فيما حدث لها.. ولكن أريدها أن تسامحني على المهنة التي اختارتني ولم أخترها.

******

الفصل الثامن

للمرة الثالثة على التوالي يخيم الصمت الذي أصبح الحضور يكرهونه، كأنه يعطيهم الفرصة للتفكير في أخطائهم، ففور انتهاء سحر من كلامها تعلقت أنظارهم برجال الدين، كأنهم يرجونهم أن يبدؤوا أي حديث حتى لا يدعوا الصمت يذكرهم بماضيهم، يريدون من يتحدث حتى لا يشعروا بالوحدة مع خطاياهم، وفى سرعة شعر أحد رجال الدين بنظراتهم وبدأ في الحديث:

— يا بنيتي رحمة الله وسعت كل شيء، تعرضت لموقف لا تحسدين عليه في سنوات عمرك الأولى، اخترت طريق الخطيئة، ولكن باب التوبة لا ينغلق حتى لو ارتكبت جميع خطايا الكون، سوف نأخذ بيدك إلى طريق التوبة ولن نتركك إلى أن نتأكد أن الفتاة البريئة عادت بداخلك.

أنهى كلامه ووضع أمامه الطبق الذي لم يتبق فيه غير ورقتين.

— اثنان ممن أنعم الله عليهما بنعمة البحث عن التوبة بقيا معنا،

أريد تذكيركم قبل اختيار إحدى الورقتين بأهمية الاعتراف الكامل بالخطايا؛ حتى تتسنى لنا المساعدة وخلق عالم أفضل، يجب أن يكون الاعتراف نابعًا من الداخل وتكون النية صافية لله.

ثم وضع يده داخل الطبق وأخرج إحدى الورقتين وقرأ الاسم.

— كريم محمد لطفي.

عند سماع كريم لاسمه بدأ في البكاء والنشيج بطريقة يمكن أن تبدو للبعض مصطنعة، وساد شعور بين الحضور أن القصة القادمة لن تتعدى كونها حكاية مراهق يبكي حبيبته التي تركته لأنه أهداها ثلاث وردات في الفالنتين لا خمسًا كالعام الماضي، حين خف بكاؤه وجه إليه أحد رجال الدين كلامه قائلًا:

— يا بني إن..

لم يمهله كريم الفرصة لإكمال كلامه وعاد إلى البكاء والنشيج بصوت أعلى من ذي قبل، وحينها تأكدت شكوك الحضور في أن قصته ستكون أسخف من قصص أفلام السبكي، مرت ثلاث دقائق لم يقاطع أحد بكاءه فيها، إلى أن انتهى وقال:

— آسف على البكاء فقد تذكرتها، سأبدأ الآن...

و دارت الدائرة وبدأ الكلام.

******

الفصل التاسع

سليلة الأتراك أو الإنجليز أو الفرنسيين أو أي من البلاد التي احتلتنا كانت؛ لأنه لا يوجد من يملك هذا الجمال بجينات مصرية خالصة، البشرة الناعمة التي تجمع بين الخمري والبياض في نفس الوقت.. تضع بعض الحمرة على الخدين فتصبح كالممثلة العالمية كاثرين زيتا جونز إن لم تكن أجمل، الشعر البني شديد النعومة والانسيابية على الكتفين أو على الظهر عندما تضع العصابة الظهرية أو الـ Head Band على رأسها، العينان العسليتان اللتان دائمًا ما يظللهما الكحل والماسكارا؛ فتصيب من تنظر إليه باللعثمة وحالة من الهبل الناتج عن عدم رؤيته لمثل هذا الجمال من قبل، وأخيرًا الجسد الممشوق المغطى بأرقى الملابس.

أعلم أنه لا يجب أن أبدأ قصتي بوصف فتاة، ولكن أريد أن أقرب صورتها إلى أذهانكم حتى تتفاعلوا معي فيما سوف أحكيه.

لم ولن أعرف كيف وقعت في حبي فتاة مثل دينا، انبهرت بجمالها

كجميع من في الجامعة، ولم أكنْ أملك أي اختلاف عن مئات الطلبة الآخرين.. ولسبب لا يعلمه إلا الله بدأنا في التعارف عن طريق مكالمات هاتفية تتعدى الثلاث ساعات في مدتها وجلسات في حرم الجامعة من أول اليوم إلى آخره، وككل قصص الحب بدأ كل منا في التلميح إلى الآخر أنه لا يجد من يفهمه وأنه يبحث عن الحب منذ زمن ولا يجد من يستحق قلبه؛ لأن الجميع خونة ومنافقون، ثم بدأت أخبرها أنني لم أرَ فتاة مثلها وأخبرتني أنها لم ترَ شابًا مثلي.. وبعد فترة قصيرة تبادلنا كلمات الحب.. وأفصح كل منا عمّا بداخله من مشاعر مراهقة متأججة مكبوتة تنتظر أول وعاء يصلح لصبها بداخله. كانت شديدة الجرأة على عكسي، تفصح عن مشاعرها بدون خجل فتقول:

ـــ كوكي بحبك، عندما نتزوج لن أتركك لحظة واحدة.. سأقبل كل جزء في جسدك حتى أعوض هذه الأوقات التي تجلس فيها أمامي ولا أستطيع الهجوم عليك.

يحمر وجهي من الخجل كأنني الفتاة وهي الشاب:

ـــ دينا تعلمين أنني أعشقك، واتركي هذا الكلام لبعد الزواج.

تضحك في دلال وتقول:

ـــ تخجل مني وأنت تعلم أنني لك وأنت لي، أنت أقرب الناس إلى قلبي وأرجو أن أكون كذلك بالنسبة لك. سنتزوج بمجرد أن ننهي الجامعة لا يوجد في هذا العالم ما يمكن أن يمنعنا.

ـــ تعلمين ما يقلقني، أشعر بالخوف أن يرفضني أبوك، فهو

فاحش الثراء وأنا من عائلة متوسطة.

ـــ كُف عن هذا السخف.. إذا اضطررت أن أقف في وجه الولايات المتحدة الأمريكية لإتمام زواجنا سوف أقف، تعلم جيدًا أنني أحبك ولكن ما لن تستطيع استيعابه هو أهمية وجودك في حياتي.. أشعر بالسعادة والكمال عندما أراك وأجلس بجانبك، وعندما تضع ذراعك فوق كتفي أشعر أن لي جسد أنثى ضعيفًا يرتجف ليد الرجل الذي يحب.

عندما يصل بنا الحديث إلى مثل هذه النقطة لا أجد ما أفعله سوى أن ألف ذراعي حولها فتستسلم لأشعر بدفء ولين جسدها، كانت أسعد أيام من الممكن أن يقضيها إنسان، ولم يعكر صفو حياتي غير أسرتي المضطربة التي تعشق الدراما والمشكلات.

******

دائمًا ما يوجد شيء، شخص أو موضوع ما يجعلني لا أتكلم أنا وإخوتي حتى أصبحنا غرباء يعيشون تحت سقف واحد. هم إخوتي وليسوا أشقائي، تزوج والدي منذ ثلاثين عامًا وأنجب صبيين وفتاة، وتم الطلاق بعد عشر سنوات زواج ليتزوج من أمي ويتم إنجابي.. فور إتمامي خمس سنوات تتوفى أمي في حادثة وتتركني في منزل كبير مع ثلاثة إخوة يتنافسون مع الشيطان في الخبث كأنها مسابقة.

أبي مثال للعائلات الأرستقراطية التي خسرت جميع أموالها

ولم يتبق لها غير ثلاثة أشياء.. اسم العائلة والمنزل ومتابعة العيش في الماضي كأن شيئًا لم يكن؛ فيصرف ببذخ إلى أن يغرق في القروض.. ثم يبدأ في البحث عن أحد معارفه القدماء ليخرجه من حفرة الديون مع وعود بإرجاع كل مليم، يعلم الدائن جيدًا أن أبي لن يعيد شيئًا مما اقترضه، ولكن أصدقاءه القدماء يحبونه بصدق ولا ينسون أيام عزه وكرمه معهم، غير هذا كان شهمًا ذا أخلاق عالية، وبالمصطلح المتعارف عليه حاليًا كان ابن ناس.

لحكمة لا يعلمها إلا الله وحده، لم يرث إخوتي أيًا من جينات أبي الطيبة كالأخلاق والشهامة والكرم، لم يرثوا غير عدم تقبله للواقع والعيش في الماضي، فكانوا كلابًا تشم رائحة النقود من على بعد عدة شوارع إن لم تكن أحياء، لا يتقبلون فكرة أننا من الطبقة المتوسطة بالذوق أو بالعافية نحن أرستقراطيون وسنعود إلى أصلنا. أخواي الصبيان خالد وعمر كانا سيئي الطباع شديدي العصبية، يمكنهما الاتّجار بالمخدرات إذا كان سبيلًا للثراء، أما أختنا سلوى فهي شديدة البرود لديها من الفطنة والذكاء ما يؤهلها لأن تكون خليفة المرأة الحديدية، هي التعريف والتطبيق العملي للمصطلح الأمريكي Gold Digger، وهي التي تبحث عن الثراء السريع من وراء الزواج.. لا يمكنكم تخيل صعوبة كوني أخًا لسلوى، دائمًا ما أراها في النادي أو في الجامعة مع أحد الشباب.. وفي كل مرة مع شاب مختلف، وإذا أردت الحديث معها عن سلوكها أقابل بوابل من التوبيخ من قبل خالد وعمر

على سذاجتي وعيشي في دور الشيخ، ودائمًا ما أسمع كلمتهم الشهيرة «ألا تعلم من هو صديق سلوى الجديد؟ إنه ابن فلان الفلاني أحد رواد الأسمنت أو أي صناعة أو مهنة يرادف امتلاكها الثراء الفاحش»، الشيء الوحيد الذي حيرني كل هذه السنين؛ أن سلوى تقدم لخطبتها الكثير من الشبان من طائفة ابن فلان الفلاني أحد رواد فوانيس رمضان ولكنها لم تتزوج قط.. حتى إنه لم تتم خطبتها، في البداية كنت أصدق كلام إخوتي بأن البيه بخيل ويظن نفسه متقدمًا لخادمة، ولكن عندما كبرت وبدأت أسمع الأرقام التي تطلبها سلوى في الشبكة والمهر حمدت الله على هروب العرسان من أمام هذه المخبولة.. فيومًا ما سأصير عريسًا ولا أريد أن أسمع هذه الأصفار في طلبات الفتاة. باختصار كنت دائم الخلاف مع إخوتي في كل شيء، بالذات في جريهم الأحمق خلف النقود كأنهم الأمريكان يبحثون عن أسلحة نووية لا وجود لها في العراق، مع فارق أن الأمريكان يعلمون جيدًا أنه لا وجود لهذه الأسلحة في العراق.

******

أما أسرة دينا أجمل فتيات الزمان؛ فلم تكن مكونة غير من فردين هي ووالدها. عندما رأيت والدها أول مرة علمت من أين ورثت دينا هذا الجمال، كان أشقر الشعر أخضر العينين مع تلك الوسامة الشديدة التي لا تعجب الكثير من النساء؛ لأنه لا يبدو رجلًا على حد قولهم، الشيء الثاني الذي لفت نظري ــ مع أن هذه الأشياء لا تلفت نظري عادة ــ أنني وجدته فاحش الثراء

بطريقة مستفزة، أخبرتني دينا أنه لا يعمل.. يجلس طوال اليوم في المنزل ويذهب إلى النادي في المساء، والمستفز في الموضوع هو الطريقة التي يصرف بها أمواله.. سأتفهم إن كان يصرف ببذخ للتباهي كالإخوة العرب في الخليج، أو حتى للرفاهية، إذا دققت النظر في حياته ستشعر بأنه ينفق نقوده لأنها معه.. فقط بدون أي سبب آخر، سبب غريب ولكنها الحقيقة، فهو يسأل دينا هل تريدين سيارة جديدة؟ فتخبره بعدم مرور عام على سيارتها السابقة، فيسألها أن تقترح عليه شيئًا يمكنه ابتياعه لأنه بحث كثيرًا ولم يجد ما هو جديد.. تبًا لك دائمًا يوجد ما يمكنك ابتياعه مهما عظمت ثروتك، في إحدى المرات أردت أن أغيظه فأخبرت دينا أن تطلب منه شراء جزيرة في اليونان أو إسبانيا، فهم يبيعون بعض جزرهم بسبب الأزمة المالية التي يمرون بها، ردت عليّ أنه سبق وابتاع واحدة يذهب إليها في الصيف، عند هذه النقطة كاد أن يغمى عليّ وطلبت منها ألا نتكلم عن ثروة والدها مرة أخرى حفاظًا على سلامتي النفسية.

كثيرٌ من الأوقات أسأل دينا عن والدتها فتجيب إجابات باهتة لا علاقة لها بسؤالي، كأن أسألها أين والدتك؟ فتجيب بأن الأم جوهرة يجب على من حولها معرفة قيمتها.. وإن لم تعرف قيمة الجوهرة فما فائدتها، نعم أيتها الشاعرة أين هي أمك حية أم متوفاة؟ بالنسبة لكثير من الناس هي حية ترزق وبالنسبة للبعض هي متوفاة، عندها علمت أنها لا تريد الحديث عن والدتها؛ فاحترمت رغبتها ولم أسألها مرة أخرى.

الغريب أن دينا لم يكن لها أي أقارب، بالتأكيد لم أسأل عن أقارب والدتها لأني لا أعلم شيئًا عنها فسألت عن أقارب والدها،

أجابتني أنه وحيد والديه وجميع أقاربه يعيشون خارج مصر ولا يملكون الجنسية المصرية، ناهيك عن أنها لم ترهم في حياتها، وبالتالي لم يكن لها في هذه الدنيا غير والدها.

******

مرت الفترة التي تلت تعارفي إلى دينا بدون أي اختلافات بيني وبين إخوتي لسبب بسيط.. أنني انشغلت معها و لم أعد أراهم كالسابق، لم أكن ساذجًا حتى أظن أن الوضع سيستمر، كنت أعلم أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. و لم يخب ظني ففي عيد ميلادي أهدتني دينا ساعة رولكس كانت لوالدها في السابق.. أعلم أنها قيمة ولكنني لم أدقق في ثمنها، عندما رأتها أختي في يدي اتسعت عيناها و كان رد فعلها:

— كريم ما هذا الذي ترتديه؟

— إنه جاكيت ابتعته من H&M يوجد تنزيلات و..

— ليس هذا أيها الأحمق من أين لك بهذه الساعة.. وهل هي أصلية؟

— أهدتني إياها صديقتي.. دينا تعرفت إليها في الجامعة، أحب هذه الفتاة سوف أخطبها عندما أنهي دراستي.

— اخلعها أريد رؤيتها.

شعرت بالغرابة ولكنني خلعت الساعة وأعطيتها لها.

— اللعنة عليك وعلى عقلك الفارغ إنها أصلية، هل تعلم كم ثمن هذه الساعة التي ترتديها أينما ذهبت كأنها لعبة.. يجب علينا

بيعها ستدر مالًا محترمًا يمكننا تقاسمه و..

لم أدعها تنهي جملتها فخطفت الساعة من يدها وأخبرتها أنها هدية لا تقدر بثمن، لم أستطع السيطرة على أعصابي فسببتها وأخبرتها أنها إن استمرت بهذا الفكر ستبيع جسدها في يوم من الأيام من أجل المال.. لم ترد علي وأظهرت لا مبالاة تليق ببرودها الشهير وانصرفت، شعرت أني علمتها درسًا حتى لا تفكر في أشيائي مرة أخرى، وطبعًا كنت واهمًا؛ فلا أحد يربح جولة مع الشيطان ويظن أن الحرب انتهت.

ولأن الحرب لم تنته بعد، استيقظت في اليوم التالي وارتديت ملابسي، فتحت درج المكتب لأرتدي ساعتي فلم أجدها ووجدت رزمة من النقود.. شعرت بكهرباء تصعقني ابتداءً من أصابع قدمي حتى شعر رأسي، جريت إلى غرفة سلوى وأيقظتها أسألها عن الساعة فقالت اسأل خالد، ذهبت إلى الصالة ووجدته جالسًا مع الشيطان الثالث عمر فسألتهما عن الساعة.. في برود شديد أجاب كأنني أسأله عن الغداء اليوم بأنه باعها ووضع لي حصتي في درج مكتبي.

تعاركت كثيرًا مع إخوتي ولكن منذ سنين لم يصل العراك إلى حد اليدين.. هذه المرة لم يكن أمامي خيار آخر، فقدت أعصابي وهجمت عليه بالقبضات والركلات.. تفاجأ في البداية ولكن الكثرة والسن والجسد الأقوى يغلبان الشجاعة بالتأكيد، ففي بضع ثوانٍ وجدت نفسي أفترش الأرض ويقوم بركلي كل من خالد

وعمر، لم يتوقفا إلا بعدما رأيا الدماء تسيل من شفتي وأنفي.

بعدما انتهى الدوار؛ أفقت وذهبت إلى الحمام أغسل وجهي ولا يوجد ما أفكر به غير دينا عندما تسألني لماذا لا أرتدي الساعة.. ما الذي يمكنني أن أخبرها أن إخوتي سرقوها وباعوها من أجل النقود؟ ستظن أنني بلطجي من عائلة قذرة يريد نقودها.. لا يوجد من لديه مثل هذه العينة من الأخوات، سلوى أيتها الحقيرة لم ترد الدخول في نقاش معي فسلطت على أعوانها لعلمها بجبروتهما، سأخبر أبي بأعمالكم المخزية وسأنتقم من ثلاثتكم، ولكنني لا أستطيع التفكير في شيء غير دينا عندما تسألني عن ساعة والدها.

عندما دخلت الجامعة أخذت أبحث عن دينا في مكاننا المعتاد بنظري داعيًا ألا تأتي اليوم، ولسوء حظي وجدتها خلفي تقول:

— بخ!!!

في اللحظة التي نظرت إليها تغيرت ملامح وجهها وسألتني:

— ما الذي حدث لا تبدو طبيعيًا.

كفتاة على أعتاب المراهقة بكيت ولم أدر ماذا أخبرها، خليط من أم وممرضة وعارضة أزياء هي دينا.. عندما رأت دموعي أخذت يدي وجرتني خلفها حتى وصلنا إلى سيارتها، ركبنا فنظرت إلي وقالت «هيا إحك لدندن»، من بين دموعي حكيت ما حدث بالتفصيل الممل، وفي النهاية أخرجت النقود التي أعطاني اياها أخي ووضعتها في حجرها، مرت نصف دقيقة وهي تنظر إلى النقود ثم إلي في استغراب، ومن وسط الدموع رأيتها تميل بجزعها علي

وتلف ذراعيها حولي وتقول:

— أخبرتك سابقًا وسأخبرك مرة أخرى، أنت لا تعلم من أنت بالنسبة إلي ولا أهمية وجودك في حياتي، أرى في عينيك الخوف من تركي لك بسبب تصرف أسرتك، ولكنني لا أهتم بهم ولا أريدهم، أنت لي وحدي إلى آخر نفس، تريد أن تثبت صحة قصتك فتعيد إلي جزءًا من النقود مع أنه يجب أن تعلم أنك لا تحتاج إلى أي برهان حتى أصدقك، إن أخبرتني أن تنينًا من رومانيا زارك في المساء والتهم الساعة ثم غادر لما شككت لحظة واحدة في صحة القصة؛ لأنها قادمة من حبيبي الذي أثق به، أما هذه النقود وساعات الكون بأجمعه فلتذهب إلى الجحيم إن كانت ستتسبب في رؤيتي لدموع حبيبي.

وأتبعت قولها بأن رمت رزمة النقود التي وضعتها في حجرها من الزجاج خارج السيارة ثم أدارتها وانطلقت. سكينةٌ حلّت على قلبي وجسدي وروحي وأدركت نوع الفتاة التي تجلس بجانبي.. إنه نوع من الفتيات انقرض منذ عشرات السنين، نوع لا أتذكر سماعي به أو وجوده إلا من خلال قصص شكسبير عبقري المسرحيات البريطاني.. لم يفتها أنني ركزت نظري على القلادة حول عنقها، تلك التي أهديتها لها بعد مرور شهر على علاقتنا، شعرت بالذنب عندما رأيتها ترتديها في حين توجد دائرة بيضاء حول ساعدي علامة على عدم ارتدائي لهديتها، كأن ما قالته منذ قليل لم يكن كافيًا فأتبعت:

— هذه القلادة لا يمكن أن تفارق عنقي إلى يوم مماتي، وليس معنى هذا أنني أحبها، ما أحبه أنها جماد وقع اختيار من أحب عليه حتى يهديني جزءًا من روحه وخياره في الحياة من خلاله، لا أريدك أن تحزن على شيء ضاع، فما دمنا معًا فلن نحتاج إلى أي تذكارات، هذه الأشياء لما بعد الفراق ولا أنتوي أن أتركك سواء شئت أم أبيت.

لقد رفعت سقف الحب عاليًا حتى بات ينطح السحب ليزيحها ويكمل ارتفاعه، بالله عليكم أخبروني ما الذي يمكن أن يُقال أو يُهدى أو يُفعل لفتاة بهذه الشفافية وجمال الروح، وضعت كفها بين يدي وضغطت عليه في رفق وقلت «بعد ما فعلته اليوم لا يوجد لدي ما أقدمه، أحبك»، ابتسمت وأخبرتني أنها لا تنتظر مني شيئًا غير عدم تركها.

******

بعد مرور سنتين على علاقتي مع دينا حدث ما قلب حياتها رأسًا على عقب.. واحتاجتني بجانبها أكثر من أي وقت مضى، توفي والدها إثر أزمة قلبية كما أخبرتني، كان يبدو لي في صحة جيدة ولكن من أنا حتى أحكم. بعدما أنهينا جميع إجراءات الدفن ثم الميراث الذي كلفنا زيارات لا حصر لها لشركة المحاماة وشركاء والدها، انتهت العاصفة وعادت السكينة تدريجيًا إلى حياتها؛ مما جعلها تفتح معي موضوع ظننت أنه مستبعد في هذه الفترة من حياتنا، الزواج.. أخبرتني أنها وحيدة في المنزل وتريد حبيبها كي

يؤنس وحدتها ويخفف من حزنها على فقدان عائلة كاملة متمثلة في أبيها، في البداية رفضت رفضًا قاطعًا غير مبرر.. بالتأكيد تستغربون ولكن سبب امتناعي كان إخوتي.

لمدة عامين هما كل زمن العلاقة وبعد حادثة سرقة الساعة، سألت سلوى على دينا وعلمت بثراء والدها.. ومن وقتها وأنا أقع تحت ضغط وإلحاح شديد كإلحاح الأمم المتحدة للحكومة الفلسطينية بتسليم الإرهابيين الذين يرمون جنود إسرائيل بالطوب القاتل، إلحاح بأن أتقدم لخطبتها وأتزوجها وهي لا تزال واقعة في حبي لأنهم لا يضمنون استمرار حبها لي في المستقبل.. يخبروني أنها فرصتنا في مصاهرة عائلة من الطبقة فوق العليا، لا أعلم ما استفادتهم من زواجي، كأني سأصرف عليهم ولكنهم أبالسة سيجدون طريقة ما، رفضت بجميع الطرق وهددت بترك المنزل؛ مما دعا أبي الذي لا يتدخل بيننا مهما حدث إلى التدخل وتخفيف حدة الهجوم عليّ. بعد وفاة والد دينا حضر إخوتي الثلاثة العزاء ومثلت سلوى دورًا يستدعي فوزها بالأوسكار بجدارة، فبكت وصرخت كأنها تمشي في جنازتها شخصيًا، ووقت مصافحة دينا أخبرتها أنها تعلم الكثير عنها من خلالي وتنتظر مقابلتها منذ وقت طويل لأننا أهل ويجب علينا التكاتف. عندما انتهت الجنازة وعدت إلى المنزل وقف أمامي إخوتى الثلاثة لغصبي على التقدم لدينا وهى في هذه الحالة.. أبيت بشراسة ووصل بنا النقاش إلى حد العراك بالأيدي فتدخل الوالد الذي يتعدى عمره السبعين عامًا للتفريق

بيننا، لهذا حينما أخبرتني دينا برغبتها في الزواج رفضت بشدة كأني أرفض طلبات إخوتي وليس طلبات الفتاة التي أحب، خفت عليها من إخوتي لأنهم يريدون إتمام هذه الزيجة.. لا أعلم ما يمكن أن يفعلوه ولكنني أخاف عليها من الهواء، فما بالك بإخوة يتخذون ميكافيللي مثلهم الأعلى.

لم تفاتحني دينا في موضوع الزواج لمدة خمسة أيام نتقابل خلالها من الصباح إلى المساء، وفي اليوم السادس سألتني بطريقة مباشرة كعادتها:

— لماذا لا تريد الزواج مني؟ راقبتك في الخمسة أيام الماضية لأتأكد أن مشاعرك لم تتغير نحوي وقد تأكدت، وتعلم جيدًا أنني لن أطلب شيئًا في هذه الزيجة؛ فلماذا رفضت بهذه الطريقة الفجة كأني أطلب أن تصبح العصمة بيدي.

تلبكت من صراحتها وفطنتها التي قررت أن تراقبني لبضعة أيام لتتأكد أن شيئًا لم يتغير من ناحيتي، لا يمكنني مواصلة إخفاء شيء عن هذا الملاك سأكون صريحًا.. نظرت إليها وعقدت حاجبي علامة الجدية وقلت:

— أعلم ذكاءك الذي لا يمكنني إخفاء شيء عنه.. لذا سأكون صريحًا، منذ فترة وقبل وفاة والدك وإخوتي يلحون عليّ للزواج منك، وبعد وفاة والدك — رحمة الله عليه — أصبح إلحاحهم مرضيًا بأنها فرصتي للزواج منك وأنت في حالة ضعف، لهذا قررت أن أزيح الفكرة من عقلي إلى أن أتأكد أنك تعديت مرحلة الألم وتريدين الزواج من أجل الحب لا من أجل شعورك بالوحدة.

نظرت إليّ بذهول ثم انفجرت ضاحكة، لا أعلم ما يضحك ولكن يبدو أن كلامي خرج فكاهيًا بدون علمي، ضحكت حتى دمعت عيناها وقالت:

— حبيبي عبيطو، غدًا سنبدأ تجهيزات الزفاف، سأقلك في العاشرة صباحًا لنرى الفنادق ونبحث عن فستان وبذلة.

دائمًا ما أستمر بالوقوع في حب هذه الفتاة كأنني داخل حفرة بدون قاع، لم أعترض هذه المرة على فكرة الزواج، ففي النهاية أنا أحبها وأتمنى قضاء عمري بأكمله بجانبها.

******

صدق جزء من مقولة الزواج يقتل الحب، هو يقتل شيئًا بداخلك.. ليس الحب إنما الشهوة.. إذا كانت العلاقة قائمة على ولعك وشغفك بجسد من تحب؛ فتأكد أنك ستمضي أيامًا سوداء بعد الزواج، أما في حالتي فقد عشقت روح محبوبتي قبل الزواج فلم يحدث أي تغيير بعده إلا زيادة في العشق، ذبت في عالمها وذابت في عالمي وأصبحنا شخصًا واحدًا تضحكه وتبكيه نفس الأشياء، تحزن لحزني وتسعد لسعادتي، أطير فرحًا لسعادتها وأتمنى الانتحار عند حزنها. كانت شديدة الثراء بعد وفاة والدها واستلامها الميراث، فاختفت مشكلة النقود التي تتسبب في ثمانين بالمئة من صراع المتزوجين. ولكن لم يختف مع اختفائها جشع إخوتي الذي

ينافس جشع اليهود.. في البداية حاولت سلوى توطيد علاقتها مع دينا وطلب بعض القروض منها، عندما وجدت الطريق مسدودًا طلبت أن تعرفها وإخوتي إلى أصدقائها الأغنياء ولكن لم يكن لدى دينا أي معارف، بعد يقينها من عدم استطاعتها الاستفادة منها بدلت نشاطها إلي، فظلت تلح علي أن أقنع دينا بالدخول معنا في مشروع تجاري يدر علينا وعليها ربحًا وافرًا يخرجنا من الضائقة المالية المؤقتة على حد قولها، لا أعلم لماذا تسميها مؤقتة فقد كانت هذه الضائقة قائمة منذ ولادتنا، أعرف نفوس إخوتى جيدًا لذا قطعت أي صلة تربطني بهم وأقلعت عن زيارتهم إلى أن كفوا عن الضغط علي و.. كالعادة كان الهدوء الذي يسبق العاصفة.

مرت الشهور الأولى من زواجي كأنه شهر عسل تم مطه لبضعة شهور، كنت أحيا مع دينا في الجنة.. نذهب إلى الجامعة معًا ونعود معًا، نسهر يوميًا في مطعم أو فندق خمسة نجوم، نذاكر ساعتين فقط طوال الأسبوع بدون أي ضغوط للنجاح أو التفوق، فلدينا ما يكفينا بدون الحاجة للعمل أو الشهادة.

تذهب دينا إلى النادي لممارسة الرياضة على الأقل مرة كل أسبوع، منذ أن تعرفت عليها وهى تمارس الرياضة بشكل أسبوعي لا تقطعه مهما حدث، الغريب أن جسدها شديد الضعف والهزال خصوصًا خلال الشهر الماضي مما دفعني إلى التساؤل:

ـــ دندن تواظبين على الرياضة كبطل أوليمبي ولا تفوتين ميعادك الأسبوعي، لماذا يزداد جسدك نحافة وضعفا مع الوقت؟

ثم أضفت بلكنة مازحة:

ـــ أشعر أنك تذهبين لزوجتك الأخرى وليس للتمرين.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها دينا فاقدة لأعصابها بدون سبب وجيه، أو بمعنى أصح بسبب ما قلته ولكنها تعلم جيدًا أنني أمزح وليست المرة الأولى التي أمزح معها، قالت بنبرة حادة لم أعتدها فيها:

ـــ أتتهمني بالخيانة بعد كل ما فعلته من أجلك؟ ظننت أنك مختلف عن جميع الرجال ولكن يبدو أنكم جميعًا تجرعتم نفس الكأس عند المراهقة؛ فأصبح نكران الجميل يجري في دمائكم.

استغربت الموقف كثيرًا ولكني آثرت الصمت وعدم تصعيد الأمور، فتركتها وانصرفت بهدوء وجلست في الصالة أمام التلفاز. جاءت بعدها للاعتذار عن تصرفها المبالغ فيه، ولكن ما أثار قلقي هو تكرار الموقف أكثر من مرة؛ فتثور وتصرخ في وجهي لأتفه الأسباب ثم تعود لتعتذر بعدها، لم أعر الأمر اهتمامًا إلى أن جاءتني مكالمة من سلوى.. أختي الجميلة التي لا يأتي من ورائها إلا المصائب:

ـــ ألو.. كريم.. لا تغلق الخط لدي أخبار تخصك بشدة أكثر مما تخصنا.

كانت تتصل من نمرة أخرى غير نمرتها منذ أن توقفت عن الرد على تليفوناتهم، شعرت بحماس في نبرة صوتها الذي نادرًا ما يتخلى عن بروده الشهير، قلت بنبرة من يريد إنهاء المكالمة:

ـــ أؤمري ما الأمر؟

— يجب أن تأتي إلى المنزل حتى نتكلم في الموضوع.. لا يمكنني أن أشرح شيئًا على الهاتف.

— لن أعتب هذا المنزل طالما أنتم ساكنوه.. لقد أصبحت لي حياتي الخاصة ولا أريدكم أن تكونوا جزءًا منها.

— إذا لم ترد أن تزورنا فقم بزيارة والدك الذي أفنى عمره من أجلك، تخطى السبعين منذ بضع سنوات وسيأتي أجله في أية لحظه، وحينها لن ينفعك ندمك على الأيام التي قاطعته فيها بسببنا.

لقد ضغطت على الجرح الذي أحاول أن أداريه منذ أن قاطعت أسرتي، والدي الذي لا ذنب له فيما يفعله إخوتي.. ضغطت على الجرح فلم يعد يكفي أن أداريه لأنني أشعر بألمه فأجبتها:

— حسنًا سأمر عليكم في السابعة مساء.

ثم أغلقت الهاتف بدون أي كلمة أخرى كأنني لا أطيق مجرد إلقاء التحية قبل الإغلاق، لا ضرر في زيارة والدي الحبيب، على الأقل احترامًا لأمي التي أحبته وتزوجته رغم أن لديه ثلاثة أطفال من زوجة سابقة.

******

عندما دلفت إلى منزلي القديم في السابعة مساء؛ وجدت إخوتي الثلاثة جالسين في الصالة أمام الباب ونظروا إليّ كأنهم ينتظرونني، كانت من المرات النادرة إن لم تكن الأولى التي يلقون علي التحية عند دخولي المنزل، بعدما رددت التحية لم تضع سلوى أي وقت وقالت:

— نعلم أنك تكرهنا ونحن نستحق هذا الشعور، ولكن هذا لا

يمنع أنك ما زلت أخانا الصغير ونهتم لأجلك، الاختلاف بيننا وارد ولكن مشاهدة أحدنا في موقف مؤلم تستدعي أن نضع خلافاتنا جانبًا.

لم أفهم ما الذي تقصده ونظرت إليها ببلاهة، فناولتني أسطوانة كمبيوتر وطلبت مني أن أدخل إلى إحدى الغرف وأشغلها لأرى الصور التي بداخلها. أخذت الأسطوانة، دلفت إلى غرفتي القديمة التي ما زالت تحتفظ بجهاز الكمبيوتر الخاص بي، فتحته ووضعت الأسطوانة بداخله، وكانت آخر لحظة أمضيها كشخص طبيعي سعيد بحياته.. ففي اللحظة التالية ظهرت محتويات الأسطوانة.. مجرد أربع صور.. أربع صور قلبت حياتي رأسًا على عقب.. الصورة الأولى لفتاة تدخل إحدى البنايات، الثانية للفتاة نفسها بداخل شقة مع رجل لا تظهر ملامح وجهه، الثالثة وهي عارية أمام هذا الرجل، الرابعة صورتهما معًا وهي جالسة كما ولدتها أمها على طرف شيء ما وخلفهما نتيجة تظهر التاريخ، عندما دققت النظر في التاريخ وجدته منذ ثلاثة أيام.. نفس التاريخ الذي ذهبت فيه دينا إلى النادي لممارسة الرياضة، لا حاجة لإخباركم من هي الفتاة البادي وجهها وجسدها كشمس منتصف النهار في الصورة.. بالتأكيد استطعتم التخمين.

بعد مرور خمس دقائق كاملة بدون حركة مرت خلالها حياتي أمامي كشريط سينمائي وكأنني أنتظر الوفاة في أي لحظة، صرخت صرخة تأوهت لأجلها حنجرتي من شدة الألم، عندما سمع إخوتي

الصوت ركضوا إليّ واحتضنتني سلوى في محاولة لتهدئتي، دفعتها بعيدًا وأخرجت الأسطوانة وصرخت:

ـــ أيها الشياطين الكفرة لن أصدقكم سأذهب للتأكد من صحة هذه الصور.. وإن اكتشفت أنها من تركيبكم سأقتلكم ثم أقاطعكم إلى يوم مماتي.

كنت في حالة ثورة و لم أعِ أيًا مما قلت، ذهبت بالأسطوانة إلى صديقي الذي يعمل كمصمم جرافيك Graphic designer لأسأله عن صحة هذه الصور، يعلم تمامًا أن دينا التي سيشاهد صورها هي زوجتي ولكنني لم أهتم، إذا كانت تخونني فلا أهتم أن يعلم الجميع بهذه الفضيحة، وإذا كانت مظلومة وقد ركب إخوتي الصور فأنا واثق أنه لن يفشي هذا الخبر؛ خصوصًا أنه أول من سيعلم عدم صحته.

أدخلني إلى مكتبه في الشركة التي يعمل بها بعد علمه بما أريد عن طريق مكالمة شرحت له فيها بصعوبة شديدةٍ ما أريد منه، كانت الكلمات تخرج من فمي كمن يحفر حفرة بداخل صخرة شديدة الصلابة، كيف يمكن أن تخبر صديقك أنك تشك في شرف زوجتك؟ ناهيك عن إخباره أنك تملك صورها عارية مع عشيقها وتود منه أن يلقي عليها نظرة، موقف يدمر نفسيتك ويسحقها سحقًا.

أعطيته الأسطوانة بدون أي مقدمات أو تحية وقد تفهم تمامًا؛ فتناولها من يدي كفعل روتيني نقوم على فعله يوميًا، وضع

الأسطوانة بداخل الجهاز ولا يزال الأمل يداعبني بعدم صحة الصور رغم وضوحها الشديد، مرت الثواني التي تسبق ظهور محتوى الأسطوانة ببطء شديد ينافس بطء القطارات المصرية، وفي النهايه ظهرت الصور.. أخذ في التحديق إليها بضع دقائق.. ثم وضعها داخل أحد البرامج وأخذ في إضافة أشياء إلى الصورة ثم انتزاعها، لم أفهم هل فعل ذلك للتأكد من حقيقة الصور أم ليؤكد ما سوف يخترق أذني في خلال ثوانٍ بأن الصور حقيقية مئة بالمئة ولا تشوبها شائبة.

لا أحد يريد أن يُرى في موقف ضعف يبكي فيه كالفتيات الصغار ويولول كعجوز شمطاء في إحدى الحواري، ولكن لم يكن أمامي خيار آخر.. أملي الأخير في عدم صحة الصور تم تبديده ولصقت تهمة الخيانة بزوجتي إلى الأبد. انخرطت في بكاء صامت بدموع ساخنة ثم ارتفع صوت صراخي أن «لماذا!!!!؟؟».. حاول صديقي تهدئتي وأخبرني أنني سأعرضه للطرد من الشركة بهذه الطريقة، فانتزعت الأسطوانة من الجهاز وركضت خارجًا من الشركة بدون أن أوجه إليه أي كلمة.

عقلي غير قادر على العمل لم أعد أعرف كيف أفكر.. ما العمل الآن.. هل يجب أن أذهب إلى إخوتي الذين فتحوا عيني على حقيقة زوجتي أم أذهب إليها وأسألها عن ماهية هذه الصور، في خضم أفكاري رن هاتفي فأجبت وكانت سلوى:

ـــ هل تأكدت من صحة الصور؟

بصوت متحشرج أجبت:

ـــ نعم.

ـــ يجب عليك أن تطلقها وتغلق صفحة هذه المأفونة.. أعلم مقدار حبك لها ولا أدري لماذا لم تقدر هي هذا الحب.

سكتت برهة ثم أردفت:

ـــ كنا سعداء بثراء زوجتك ولكن عندما تضع المال أمام كرامة أخي الصغير سأسحق هذا المال سحقًا بقدمي.. لا نريد شيئًا منها نريدك أن تكون سعيدًا وتجد من يقدر حبك الذي أعلم جيدًا أنه لا مثيل له.

لم أستطع الرد وواصلت البكاء فقالت:

ـــ ننتظرك في المنزل.. لست وحدك فعائلتك تساندك، سلام.

أغلقت الهاتف وهممت بالتحرك إلى منزلي القديم، ولكنني تذكرت دينا ومواقفها السابقة معي، أعلم جيدًا أنها خانتني ولكن لا ضرر من الذهاب إليها ومصارحتها بالأمر، ما الذي يمكن أن يحدث سأتركها على أي حال.. فلا ضرر من مصارحتها بسبب تركي لها، لا يوجد لدي تصورات عما يمكن حدوثه سأذهب ولا أهتم إن اندلعت الحرب العالمية الثالثة الآن.

******

فور وصولي إلى الفيللا شعرت بأن شيئًا غير طبيعي، هذا الشعور الذي يتسلل بداخلك كمرض خبيث ليس له أية أعراض ظاهرة.. وفى غفلة تكتشف ما أتلفه المرض من أعضاء بداخل جسدك وتصبح حياتك مهددة في يوم وليلة، هذا ما شعرت به حينما وقفت بسيارتي خارج جراج الفيللا ولم يهرع عم عبدو

البواب ليفتح لي الباب كعادته، ركنت خارج الفيللا وترجلت.. ومن أول خطوة أخطوها بالداخل صدق حدسي وتأكدت بوقوع مصيبة حتى أرى الكثير من ضباط الشرطة يحومون حول وداخل المنزل.

ذهبت إلى أعلاهم رتبة وسألته بصوت بدا مرتجفًا:

ـــ ماذا حدث؟

نظر إلي ثم تجاهلني مما دفعني إلى مخاطبته بصوت أعلى:

ـــ أنا كريم زوج مدام دينا ما الذي يحدث؟

كأنني قلت الكود السري المتفق عليه للقبض علي، بمجرد أن أنهيت جملتي وجدتني محاطًا بعساكر وضباط وقد وضعوا الأصفاد بين يدي، فقدت أعصابي وظللت أصرخ أن أتركوني وما الذي حدث سوف أقاضيكم، وفى المقابل تلا أحد الضباط بعضًا من حقوقي التي لم أفهم منها شيئا لعدم تركيزي في أي مما حولي.

لم تخفت مقاومتي حتى بعد أن وضعوا الأصفاد حول ساعدي وانتظروا بضع دقائق أملًا في أن أهدأ.. ولكنهم لم يعلموا أنني أتيت متوترًا ومحملًا بثقل العالم فوق كتفي بعد معرفتي بخيانة زوجتي فلم تخفت عاصفتي لحظة واحدة.. إلى أن شعرت بثقل في مؤخرة رأسي أدى إلى دخولي عالم اللاوعي، علمت فيما بعد أن أحد الضباط ضربني بكعب مسدسه.

******

ها أنا ذا جالس بداخل زنزانة أتمنى لو أبيع روحي

للشيطان ويخبرني ما الذي يحدث، حاولت سؤال الجندي الجالس أمام الزنزانة ولكنني قوبلت بنظرات باردة وأعين حمراء يصاحبها صوت منخفض يتمتم «لو صحتني من النوم تاني هفشخك»، لذت بالصمت منتظرًا أن يعطف عليّ أحدهم ويفك الألغاز التي دخلت حياتي بدون سابق إنذار.
بعد مرور ساعة، رأيت أحد الضباط يفتح زنزانتي ويأمرني أن أذهب معه بهدوء وإلا واجهت عواقب لا قبل لي بها. أدخلني إلى غرفة بها مقعدان، يجلس على أحدهما رجل وسيم حليق الوجه تعدى عمره الخمسين، يرتدي حلة ومعطف يصرخان أناقة.
بصوت رخيم قال:

— اجلس أنا هنا لمساعدتك، أعلم أنك حائر ولكن كل شيء سيصبح واضحًا بعد حديثنا الذي لن يستغرق الكثير.

جلست وقلت بدون أن أسأله عن نفسه كأنني لا أستطيع الانتظار:

— كلي آذان صاغية.

— جيد جدًا، اسمي أكرم أبو العلا، لا أعلم هل سمعت عن هذا الاسم من قبل أم لا ولكنني من أشهر المحامين في مصر إن لم أكن أشهرهم على الإطلاق، تم تعييني من قبل إخوتك البارحة عندما علموا أنه تم القبض عليك واتهامك بقتل زوجتك.

لم أعلم هل يجب عليّ الحزن على زوجتي الخائنة أم لا، ولكن في جميع الأحوال كان الخبر صدمة مما دفعني إلى البكاء بدون أن أنطق بكلمة واحدة، لم أعلم تحديدًا هل هي دموع فراقها أم

دموع عدم استطاعتي مواجهتها بعد الآن بما فعلته، رأى أكرم دموعي ولم يهتم ككثير من المحامين الذين تموت عواطفهم مع الوقت من كثرة ما يرون، أتبع قائلًا:

— انتحرت زوجتك عن طريق تناول جرعة مضاعفة من أدوية مضادة للاكتئاب ولم نجد أي وريث لثروتها؛ فأصبحت وريثها الوحيد.

— ولكن دينا لم تكن تتناول أدوية مضادة للاكتئاب.

ابتسم ابتسامة مقززة تخفي خبث الثعالب:

— يوجد الكثير مما لم تكن تعلمه عن زوجتك، علاقتها العاطفية مثلًا.

نظرت إليه شذرًا:

— وكيف علمت بها؟

— حتى البارحة كانت علاقتها سرية.. ولكن بعد خبر انتحارها انتشر الكثير من صورها مع عشيقها، جميع الناس الآن تعرف أنها خائنة لزوجها ولا يوجد من يتعاطف معها، الجميع قلبهم معك في محنتك ولكنهم سعداء بخلاصك منها.. أولهم إخوتك، كلفوني فور معرفتهم بنبأ القبض عليك لأخلصك من التهمه ونجحت في إثبات انتحار دينا بالدلائل. ما سيحدث الآن أنك ستنتظر في حبسك الانفرادي يومين ثم تخرج لتجد ثروة وعائلة محبة في انتظارك، فور خروجك سنبدأ في إجراءات الورث أراك بعد يومين.

انتهت المقابلة وذهبت إلى زنزانتي لا أقوى على الحركة.. كأن

جسدي أصابه الضعف من كثرة الهموم والألغاز التي لم ولن أعرف حلها، لا أصدق أن دينا كانت تتناول أدوية مضادة للاكتئاب.. ولكن ليس من واجبات الساذج الذي تخونه زوجته أن يدعي معرفته بها، رأسي يزن طنًا وجسدي في حالة ضعف مستمر كأنني خرجت لتوي من حمام دافئ لا ينتهي مفعوله. سأقضي يومين في الزنزانة ثم أخرج لأتمتع بثروتي الجديدة وأنسى دينا وليسامحها الله، شيء واحد أودّ أن أعرفه، طالما ثبتت براءتي لماذا يجب أن أظل حبيسًا ليومين.. سأسأل أكرم وقت خروجي، وبالتأكيد حينما حان وقت الحرية نسيت سؤاله وانهمكت في إجراءات الورث.

******

عام مضى على تسلمي لثروة دينا التي ورثتها، صرفت عليّ وعلى إخوتي ببذخ شديد وحققت جميع أحلامهم من منازل وسيارات ورفاهيه عاشوا يحلمون بها، دخلت في بضع علاقات عاطفية باءت جميعها بالفشل؛ فلم أجد من تضاهي دينا جمالًا وروحًا وشخصية، وضعتني تحت تعويذة تجعلني أقارنها بكل فتاة أتعرف عليها؛ فأهرب من العلاقة كأنني أنجو بحياتي، لولا خيانتك لظللت عازبًا إلى آخر عمري وفاءً لحبي لك. مضى العام بروتين جميل ومريح، انتقل إخوتي وأبي للعيش معي بالفيللا التي تحتوي على ست غرف، ابتعنا سيارات والكثير من الملابس من مصر وأوروبا حتى أصبحنا أشخاصًا آخرين.. وكما حلم إخوتي انتقلنا إلى الطبقة الراقية العليا من المجتمع.

في البداية أردت أن أعرف كيف انتحرت دينا ولماذا، ولكن سلوى أخبرتني أن المعرفة والخوض في القضية لن يزيدني إلا حزنًا. اتبعت نصيحتها وبدأت أنغمس في حياتي الجديدة كأنني ولدت بهذه الثروة ولم أعرف دينا قط، ظللت أراها في أحلامي ثم أستيقظ وأنا أبكي فراقها وأتمنى أن تعود إلى حتى ولو خائنة.. وكجميع سنن الحياة بدأت ذاكرتي تفقد الشعلة التي تلهبها وبدأت أنساها وأنسى معها حزني، إلى أن جلست على كمبيوتر سلوى في أحد الأيام واقشعر جسدي لما قرأت.

عندما جلست على الكمبيوتر الخاص بسلوى أردت أن أتصفح الإنترنت لحين تصليح جهازي، بسلامة نية فتحت المتصفح فقام تلقائيًا بفتح الصفحة الأولى على الإيميل الخاص بسلوى.. هممت بإغلاقه إلى أن وقعت عيناي على عنوان آخر إيميل مبعوث.. من أكرم أبو العلا المحامي الذي أخرجني من السجن ثم أصبح محامي الأسرة الآن، ألحّ عليّ فضولي أن أفتحه وأضيع بعضًا من الوقت الذي أملك الكثير منه.. فمؤخرًا أصبح شغلي الشاغل هو البحث عن شيء ما على الإنترنت أعلم جيدًا أنني لن أجده، ولكنني لا أيأس لأن اليأس يعني العودة لشعوري بالملل، بدأت عيناي تجري على الأسطر ورويدًا أصابتني جلطة، لا أعرف تحديدًا ما هي الجلطة وما أعراضها ولكن عقلي الصغير لم يجد اسم نوبة أخرى يطلقها على التغيرات التي حدثت، تغير لون وجهي إلى الأزرق.. رعشة انتابت يدي وانتقلت إلى باقي أعضاء جسدي.. أرى شاشة

الكمبيوتر كجزء منفصل عن الواقع كأنها البقعة الوحيدة الملونة في لوحة أبيض وأسود.. ضاق نفسي كأن الهواء يرفض الدخول ثم يرفض الخروج.. دوار عنيف أطاح بما تبقى من عقلي وقتها فأصبحت غير قادر على ترتيب أفكاري.

عندما وصل كريم إلى هذه النقطة توقف عن الكلام وبدأ في البكاء، وكالعادة تدخل أحد رجال الدين لتهدئته:

— هيا يا بني لقد قطعت ثلاثة أرباع الطريق عند قدومك إلى هنا ولم يبق إلا القليل، تشجع وتذكر أنك هنا كي لا تبكي بحرقة على ذنب اقترفته مرة أخرى، أنت في ريعان شبابك الآن وبالتأكيد لا تريد أن تشيخ على هذه الحالة، كل ما نطلبه منك أن تكون صادقًا معنا في كل كلمة.

— يعلم الله أنني لا أقول غير الصدق، لن أحكي تفاصيل لا أستطيع.. سأخبركم بخلاصة ما علمته وتأكدت منه.

أخرج منديلًا مسح به دموعه وبدأ في الحديث:

— خلاصة ما حدث بعد قراءة هذا الإيميل، أولًا تصفحت جميع إيميلات سلوى على مدار العام الماضي وهالني ما قرأت، برغم كثرة التفاصيل لم أستطع نسج القصة كاملة في عقلي ووجدت الكثير من الفراغات بها، لذا ذهبت إلى أكرم أبو العلا المحامي وواجهته بقراءتي لجميع إيميلات سلوى، ثم هددته بأنه إن كذب في حرف واحد سأنفق الملايين لشركات المحاماة حتى يزج به وراء القضبان. وكشخص يليق به الجبن والخسة تصرف أكرم ولم يكذب خبرًا، لم يكن يعرف المعلومات التي لدي فخاف أن يلفق إحدى قصصه

وحكى كل شيء.

كنت ساذجًا عندما صدقت إخوتي حتى عندما أعطوني دليلًا، لم تكن دينا خائنة.. كانت مريضة وتتردد على الطبيب، والصور التي تم التقاطها لها عارية بصحبة رجل لم تكن سوى صورها في العيادة وقت فحصها.. وقد تم التقاطها من زاوية لا تظهر غير دينا ورجل آخر فلا تستطيع أن تعرف أنها بداخل عيادة، خطة شديدة الإحكام التي نفذها إخوتي.. بعد أن أروني الصور وأثبتوا أنها خائنة جاءت الخطوة الثانية، وتوجب عليهم القيام بها بدون ضياع أي وقت لكي لا أرى دينا وأواجهها بما وجدت فتخبرني حقيقة مرضها وبراءتها من الخيانة، بمجرد أن رأيت الصور بعثوا بشخص ما ليذهب إليها ويسممها عن طريق حقنة، كانت مريضة.. ومتوقع أن تفارق الحياة في خلال بضعة أشهر.. الكلاب لم ينتظروا هذه الأشهر لأنها لو ماتت سأظل على مقاطعتهم، أما بهذه الطريقة فقد أثبتوا حسن نيتهم تجاهي عندما طلبوا مني تركها ولتذهب هي وثروتها إلى الجحيم، فلم يحدث مني إلا حزن خفيف على من اعتبرتها خائنة وهي في الحقيقة مريضة ستفارق هذه الدنيا خلال شهور، ووصل إخوتي إلى ثروة دينا كما خططوا ووثقت بهم؛ فتركت لهم الحبل على الغارب فأصبحوا يتصرفون في النقود كأنها لهم. أما اليومان اللذان انتظرتهما في السجن بعد إثبات براءتي من قتلها فكانا لإنهاء دفنها ونشر فضيحتها الكاذبة الملفقة قبل خروجي.

خططوا لكل شيء، بذلوا جهدًا في التخطيط لو تم بذله في العمل لأصبحوا من أصحاب الملايين، راقبوها إلى أن اكتشفوا مرضها، وظفوا الممرضة لتلتقط هذه الصور، اتفقوا مع أحد القتلة المأجورين

ليقتلها اللحظة التي أرى فيها صورها وأعتقد أنها خائنة، والباقي سهل، أرث ثروتها وأنفق عليهم لأنهم من أخبروني بخيانتها وأظهروا عدم اهتمامهم بخسارتي للثروة إن تركتها. لم أواجه إخوتي أو أبلغ الشرطة عنهم، لا أعلم أسباب التأخير تحديدًا.. ولكنني أعتقد أنني خائف من حبسهم إن أبلغت الشرطة فأصفى وحيدًا.. حتى معاشرة الذئاب أهون من الوحدة، ولا أريد مواجهتهم لأنني إن فعلت ولم أخرج بنتيجة مرضية سأحيا بذنب أكبر بكثير مما أنا فيه.. الآن أنا مؤجل لمواجهة.. أما إذا واجهتهم ولم تسفر المواجهه عن شيء سأصبح ساكتًا عن الحق.

كيف أحيا وأنا أعلم أن الفتاة التي أحبتني وأعطتني قلبها وعمرها ترقد الآن في القبر تاركة قاتليها ينعمون بالحياة ويبددون ثروتها على ملذاتهم.. كيف أراهم يصرفون ثروة حبيبتي بعد أن قتلوها.. كيف أحيا بينهم وهم من قتلوا أقرب الناس إلى قلبي.. كانت مريضة ولم يبق لها غير بضعة شهور أرادت أن تمضيها معي واستكثر إخوتي عليها عيش هذه الأشهر، تظنون أنني كاذب في اعترافي لأنني لم أبلغ عنهم ولكن أقسم لكم أن الأمر صعبٌ، لا أتخيل أن أصبح وحيدًا سأجن أو أنتحر.. حتى الآن أنا أفكر فيما يجب عمله معهم حتى تنام دينا في قبرها راضية، أما إذا وضعتهم في السجن فلن يوجد ما أفكر فيه ولحظتها سيصبح الانتحار أقرب إلي من القلادة التي تحيط برقبتي، أنا الآن بين أيديكم أنتم محطتي وفرصتي الأخيرة.

******

الفصل العاشر

أنهى جملته وسكت، وكعادته انخرط في بكاء تم تجاهله من الجميع وكأنهم ملوه وبكاءه. وساد إحساس عام بالسخط من هذا اليوم.. كأن ما سمعوه واعترفوا به جثم على قلوبهم فلم يعد باستطاعتهم المواصلة، هم أحد رجال الدين أن يتكلم ولكن سبقه الضابط في الكلام:

ـــ لم يتبق غيري فأرجو توفير الخطبة وسأبدأ في الاعتراف قبل أن أعدل عن الفكرة.

ابتسم رجال الدين من صراحته وعقب أحدهم قائلًا:

ـــ تفضل يا بني تبدو متقد الذكاء ولا داعي لتشجيعك.

ـــ أعلم.. شكرًا لك.

برغم تسرعه في الكلام سكت قليلًا قبل أن يبدأ في سرد قصته، بدا كأنه لا يعلم من أين يبدأ، مرت دقيقة من السكون ما لبث أن قطعها وبدأ حديثه، ومع بدايته للحديث وضع يده بداخل سترته كأنه يتحسس شيئًا ما، كان مسدسه، يود لمسه حتى يشعر بالأمان في الكلام كما تعود دائمًا.

******

الفصل الحادي عشر

بدأ كمال حديثه بلهجة تحمل الكثير من الاستهزاء وبعضًا من المرارة.

ضابط أمن دولة سابق، أستطيع الشعور بنظراتكم المتلهفة كأنكم على وشك سماع أقذر اعتراف في هذه الليلة المشئومة.. أنت ضابط أمن دولة سابق إذن أنت تخطط لتعذيب وقتل جميع فئات الشعب حتى ينعم من هم في السلطة بالعيش في سلام. لن تكونوا أول من تقذفون بحكمكم بناء على عملي السابق، ستصدمون حينما تعلمون أنني لم آت إلى هنا للحديث عن عملي السابق ولا يوجد لدي ما اقترفته لأندم عليه وقت تقديمي الخدمة في جهاز الشرطة.

بعد نكسة الخامس والعشرين من يناير أُحلت إلى التقاعد المبكر، ونعم.. إنها نكسة ومن يعتبرها ثورة ما هو إلا مغفل رؤيته قصيرة المدى لا يدري ما ستؤول إليه مصر في السنوات القادمة، وسيتمنى أن تعود أيام مبارك عصر الأمن والأمان.

سبب إحالتي للتقاعد هو مسئوليتي عن ملف الكثير من السلفيين الذين أصبحوا ذوي علاقات وطيدة بمن اغتصبوا السلطة بعد

النكسة، فكنت من أوائل الأسماء التي كونت كبش الفداء كأننا سبب الفساد في البلد.. هذا الفساد المتغلغل في المصريين منذ قديم الزمان بداية من العمل بالسخرة لعشرين عامًا من أجل بناء مقبرة لزعيمهم إلى يومنا هذا، تم اتهامي وبعضًا من زملائي بالتسبب فيه.. حماة الوطن أصبحوا هم المفسدين.. جزء صغير بداخلي يتمنى أن أعيش إلى الوقت الذي يبكي فيه المصريون بدموع من دم على عصر الأمن والأمان الذي أضاعوه، واستبدلوه بالإخوان والسلفيين الذين سيقودون البلد إلى حروب دينية لن يربحوا أيًا منها لغبائهم وعدم قدرتنا على خوض أي حروب، نحن كالملاكم المتقاعد نملك كل الخبرة وصفر على الشمال من ناحية القدرة على التنفيذ. كنا..

قاطعه أحد رجال الدين قائلًا:

ــ يا بني لسنا هنا للحديث في السياسة ولا يوجد من يحكم عليك، كل ما نريده هو..

لم يدعه كمال يكمل حديثه وقال:

ــ أعلم أعلم.. أنتم هنا للمساعدة على تكفير الذنوب ولكنني أريد أن أعرفكم بنفسي قبل حديثي عما جئت من أجله، دعني أكمل بدون مقاطعه حتى لا أعدل عن رأيي.

لم يعلق رجل الدين واكتفى بابتسامة مشجعة.

******

عملت كضابط في الكثير من الأقسام، إلى أن وصلت سمعتي

الحسنة في انتزاع الاعترافات من المجرمين إلى أمن الدولة وتم ضمي إلى هذا الجهاز الرهيب، سبب آخر ساعدهم في اتخاذ هذا القرار وهو كرهي الشديد لمن يستغلون الدين ويكفرون الناس، هؤلاء أخطر على الدولة من جميع المجرمين الذي قابلتهم على مدار ثلاثة وثلاثين عامًا من العمل مجتمعين، معظم المجرمين أو السارقين يريدون بعضًا من المال على بعضٍ من المخدر الذي يتعاطونه وكأنه مياه للشرب بدون مواعيد وجرعات.. القانون الوحيد المتبع هو متع جسدك بكل ما تستطيع من المخدر الآن.. فلا تعلم هل سيتوافر غدًا أم لا، وكما ترون هم يؤذون أنفسهم ولا يؤذون المجتمع إلا نادرًا عندما يستعصي عليهم وجود المخدر.

«أما أصحاب الذقون» والجلاليب القصيرة والوجوه العكرة التي يميزها طابع قبيح أعلى الوجه يسمى زبيبة صلاة، ويتم التنافس بينهم فيمن لديه أقبح زبيبة مما يعني في عرفهم أنه أكثرهم صلاة.. تبًا لهم كلنا نصلي ولا يوجد لدينا هذا الطابع، إنهم يريدون الاتجار بالدين والكذب على الناس بأنهم الأتقياء والوحيدون الذين يعلمون طريق الجنة، وحتى تكمل اللعبة يطلقون على أنفسهم «السلفيين».. كأن الجميع كفار وهم الذين يريدون إعادة أيام الإسلام.

ذكرت أن هؤلاء السلفيين أخطر من المجرمين لأنهم يريدون ويخططون للوصول إلى الحكم، يظنون أن جميع من يعمل في الدولة كفار، فالبنوك ربوية يجب أن تغلق، التأمينات حرام شرعًا لأنك

تدفع نقودًا من الممكن ألا تستفيد منها فهي كالقمار، الضرائب يجب أن تستبدل بالزكاة، المسيحيون يجب أن يدفعوا الجزية، القضاء يجب أن يستبدل لأنه لا يحكم بشرع الله.. فالسارق لا تقطع يده والزاني لا يجلد.. ناهيك عن غلق الفنادق وإنهاء بيع الخمور؛ مما يترتب عليه انتهاء قطاع السياحة بأكمله الذي يحيا من ورائه آلاف إن لم يكن ملايين من المصريين، وفى النهاية يريدون السيطرة على الأزهر الشريف وإعدام كل من فيه لأنهم يتقبلون ويحلّون جميع ما سبق.

لأجل جميع الأسباب التي ذكرتها قاتلت السلفيين عن اقتناع تام، وعندما يقتنع الرجل بعمله يتقنه إلى أقصى الحدود وكنت من هذه الفئة. إذا أردتم رأيي فيما يجب عمله مع من يريد قلب نظام الحكم والسيطرة على البلاد حتى ينفذ أهدافه الشخصية يجب أن يقتل اليوم قبل غد، عندما سألت لماذا لا نقتل السلفيين المثبت عليهم المساعدة في قلب نظام الحكم رد علي اللواء قائلًا:

ـــ لا يوجد أحب إلي من قتلهم والتمثيل بجثثهم، ولكن من واجب الإنسان أن يتعلم من الماضي.. عندما بدأ ضباط جمال عبد الناصر في قتل الإسلاميين سواء إخوان أو سلفيين حدث الكثير من حالات الانتقام، قامت عائلات القتلى باغتيال الضباط؛ مما دفع النظام إلى عقد هدنة مع الإسلاميين أن لا للقتل من الطرفين، فاكتفينا باعتقالهم لسنوات طويلة قد تمتد إلى وقت الوفاة، عندما يكون السجين على قيد الحياه دائمًا ما يداعب الأمل عائلته

فتحسن التصرف.

وعلى ضوء هذه المحادثه بدأت طريقي ووضعت قاعدتي الخاصة، يمكنني التعذيب إلى حد يجعل ملك الموت في حالة تأهب ولكن لا يجب أن أدعه يكمل عمله أبدًا، هناك اللحظة الفارقة التي يجب أن أتوقف عندها حتى لا تحدث وفاة.

من حيث التعذيب يوجد الضرب، الجلد، نزع الأظافر، كي المناطق الحساسة، عصا المقشة التي تعلمون جيدًا الغرض منها، خلع ملابس زوجات أو أمهات المعتقلين أمامهم.. كانت تعتبر أحدث الطرق وقتها ولكنها فعالة ولها تأثير السحر، وأخيرًا طريقتي المفضلة وهي الصعق بالكهرباء.. لم تكن المفضلة لدي لفاعليتها فقط ولكن لجلسات الرهان التي كنا نجريها وقت صعق أحدهم، كنا نتراهن على الجرعة التي يستطيع المعتقل تحملها في الصعقة الواحدة، دائمًا ما أرفع رهاني إلى أعلى الجرعات التي تزيد فيها نسب الوفاة على خمسين بالمئة، إذا تحملها المعتقل ولم يفارقنا فزت بالرهان.. إذا مات لا سمح الله خسرت الرهان وتم وضعي في مأزق يغضب رؤسائي. لم تحدث حالات وفاة كثيرة من وراء جلسات الرهان.. ولكن عند حدوثها اعتدت أن أحرق الجثة وأتخلص من الرماد، ثم أداهم أسرة القتيل موجهًا إليهم اتهام إيواء مجرم وأعتقل أحدهم لبضعة أيام ثم أفرج عنه وأحذرهم من عدم التبليغ عنه إذا وجدوه، ولأنني لا أحب الكذب أحكي لرئيسي القصة كاملة فيبتسم معجبًا بتصرفي ولكن دائمًا ما كان يقول:

ـــ أنت ذكي تستطيع إخفاء ما تريد، ولكن تذكر أن لديك عددًا محدودًا من الجثث تستطيع إخفاءها أسفل سجادتك وإذا زاد العدد لن تستطيع السير فوقهم.

عملت بجميع نصائحه وبذلت قصارى جهدي للتفاني في عملي من أجل بلادي، وكانت النتيجة الخروج المبكر إلى المعاش. حياتي الشخصية والتعذيب الذي شهده الكثير على يدي في الماضي ليسوا سبب وجودي اليوم، أردتكم أن تأخذوا خلفية عما اقترفته بدون أي ذرة ندم.. حتى تعلموا إلى أي مدى بشاعة ما سوف أحكيه.. عندما يندم رجل اعتاد تعذيب الناس على شيء غير التعذيب.. فاعلموا أنه حدث جلل يستحق الاهتمام.

******

عندما تخرج على المعاش ويتم إضافة عشر ساعات إلى يومك سوف يصبح الملل عملك الجديد.. ومن مهام هذا العمل الاهتمام المفاجئ بنشاطات لم تكن تعلم وجودها أو لم يكن لها وجود في مجال رؤيتك المزدحم بعملك السابق، كالجلوس على المقهى ولعب الطاولة، محادثة الأصدقاء القدامى، محاولة المساعدة في تنظيف المنزل التي تنتهي دائمًا بتوسل زوجتك إليك أن تتركها وتذهب للخروج.. وإن لم يكن لديك أي مشاريع سوف تطلب منك أن تذهب لشراء الملح من محل في الصحراء لأنه الأطيب مذاقًا وجودة، وأخيرًا رؤية الناس.

ليس المعنى من رؤية الناس حرفيًا هنا. [illegible]

معاناتهم، رؤية عم عبدو البواب الذي اعتدت أن أوبخه عندما أراه على تقصيره في عمله حتى إن لم يكن مقصرًا.. رأيته يئن ويمسك بظهره في كل مرة ينثني ليمسح الدرج، عندما سألت زوجتي علمت أنه يحتاج إلى عملية ولا يملك ثمنها وقد تم وضعه على قائمة الانتظار في مستشفى حكومي، رأيت عائشة التي تبيع الخضراوات حتى تطعم أولادها الخمسة بعد وفاة زوجها وتركها مع الكثير من الديون التي لم يتنازل أصحابها عن أي شيء منها، حتى بعد علمهم بوفاته طالبوها بتسديد ما تبقى.

رأيت ورأيت و..

وأكثر ما شدني هو الطفل الذي دائمًا ما أراه يجوب في منطقتنا.. وكل فترة يختفي ويأتي طفل غيره كأنهم يسلمون لبعض. دائمًا هو طفل شوارع ملابسه شديدة القذارة ووجهه مرهق يبدو دائمًا على وشك الإغماء، الغريب أن هؤلاء الأطفال لا يشحذون ولا يعملون مع أي من الباعة في المنطقة.. ما الذي يفعلونه إذن في منطقة راقية لا يشحذون فيها ولا يعملون مع الباعة الجائلين؟ بدأت حاسة الشرطي تعمل فذهبت إلى أحدهم وسألته:

— ما الذي تفعله هنا؟

ببطء شديد وبعينين يتطاير الألم منهما كأنه تحت تعذيب دائم ينظر إلي ويجيب:

— أنتظر والدي.

لمنظره الذي يدعو إلى الشفقة تركته، لو حدث هذا الموقف

أيام عملي في الشرطة لكنت أخذته من قفاه وذهبت به إلى أقرب قسم لإجباره على الاعتراف، الاعتراف بماذا؟ لا أعلم ولكن هذا ما تعلمته من عملي أن كل من لا يبدو طبيعيًا يخفي وراءه سرًا.

رأيته في اليوم التالي وظللت أراه لبضعة أيام أخرى بدون سؤاله عن أي شيء، ثم فجأة اختفى.. سألت الكثير من أهالي المنطقة عليه وجميعهم نفوا معرفتهم به، وبعد مرور ثلاثة أيام تحديدًا رأيت طفلًا آخر.. نفس الملابس القذرة التي تتنافس في قذارتها مع صندوق الزبالة، الوجه التائه الذي يعطيك إحساسًا بأن صاحبه يتألم طوال الوقت، وعندها.. قررت أن أتبعه لأعلم أين يذهب وما قصتهم.

******

استيقظت في العاشرة وذهبت لأجلس على المقهى كعادتي منذ أن أجبرت على التقاعد، طلبت حجر شيشة جاءني بعد مرور عشر دقائق، إن كنت في الخدمة لاعتقلت جميع العاملين لهذا التأخير ولكن ما باليد حيلة. وفجأة رأيت ضالتي.. الطفل ذا الملابس القذرة والعينين المتألمتين وعلامة الاستفهام المحيطة بوجوده في هذه المنطقة، حين بدأ المشي مبتعدًا تركت النقود على الطاولة ومشيت خلفه.. لحقته حتى توقف أمام بناية فخمة وجلس على الرصيف منتظرًا.. مرت خمس دقائق ثم خرج رجل من شقة الدور الأرضي ودعاه للدخول.. بحثت بنظري عن نافذة تتيح لي الرؤية بالداخل لأعلم ما الذي يحدث، وجدت واحدة ولكن توجب علي القفز

بداخل الحديقة.. قفزت ولم أضع وقتًا، وضعت وجهي أمام النافذة ورأيت الطفل مع الرجل الذي دعاه للدخول.. نام الطفل على طاولة في منتصف الحجرة وأغمض عينيه كأنه يعرف ما الذي ينتظره.. جهز الرجل حقنة ودسها في ذراع الطفل وبدأت ملامح الطفل في التراخي كأنه يفقد الوعي، ووضع الرجل الحقنة جانبا وأخذ مشرطًا.

يا إلهي الرحيم.. المنظر لا يبشر بالخير، طفل غائب عن الوعي ورجل يمسك بمشرط.. مشهد لا يحدث إلا في أفلام الرعب، أزاح الرجل فانلة الصبي لتصبح معدته عارية.. وكطبيب يجرى عملية روتينية شق أسفل معدة الطفل بمشرطه، ووضع المشرط جانبًا.. أدخل يديه داخل معدة الطفل وأخرج كيسًا شفافًا بداخله بودرة بيضاء.. ثم أخرج إبرة وفتلة وشرع في خياطة الجرح الذي أحدثه بعدما أخرج منه مراده، وإلى هذه النقطة فقدت قدرتي على التحمل وركضت مبتعدًا.

وضحت الصورة أمامي كلوحة في معرض تم نزع الغطاء من فوقها، حينما اشتدت إجراءات الأمن على حدود الولايات المتحدة الأمريكية مع كوبا والمكسيك، لم يستطع تجار المخدرات تصدير منتجاتهم وتم الإمساك بالكثير من المهربين، فابتكر أحدهم طريقة جديدة.. غير إنسانية ولكنها فعالة.. عن طريق وضع البودرة المطلوب تهريبها بداخل معدة أشخاص لديهم القدرة على الدخول إلى أمريكا، يتم تخدير الشخص وفتح جرح صغير في

معدته يوضع بداخله الكيس ثم يتم خياطته، مع إعطائه مقابل مادي يجعله يتغاضى عن استخدام معدته كمخزن بضائع، غير الألم الذي يشعر به عند زوال مفعول المخدر.. السهل الممتنع.. أعادت هذه الطريقة رواج بضائع التجار لبعض الوقت، إلى أن بدأت الشرطة الأمريكية في استخدام أجهزة تعتمد على أشعة حديثة تكشف المخدرات حتى ولو كانت بداخل الجسد، فتم نسيان وتجاهل هذه الطريقة والبحث عن مخرج جديد.

تذهب الفتاة أو المرأة إلى الغرب فتبتاع ملابس لا وجود لها في بلادنا لتتباهى أمام أصدقائها، يذهب الرجل ويعود محدثًا عائلته عن الرواتب العالية التي يتقاضاها من هم في مثل مركزه.. وأحيانًا يبالغ فيحكي عن الشركة التي ترجته حتى يعمل معها ولكنه أبي لأنه يحب بلده، يسافر الشاب فيعود بقصص مثيرة معظمها غير حقيقي يحكيها بحماس شديد كمذيعي البرامج التليفزيونية حينما يتحدثون عن قضية تخص الفقراء ومحدودي الدخل، فيتحدثون بحرقة مبالغ فيها حتى يخفوا لامبالاتهم. الجميع يذهب إلى الغرب فيعود بشيء ما، لماذا إذن تظنون أن تجار المخدرات سيكونون مختلفين؟ أليسوا بشرًا مثلنا؟ أليس من حقهم أن يبحثوا عن تطورات لعملهم؟ هذا ما حدث فاستخدم أحد تجار المخدرات طرق الكوبيين والمكسيكيين التي لم تعد تستخدم في أمريكا لتطور أجهزة الأمن.. وبما أن أجهزة الأمن في مصر تقتصر على الجندي الذي يقضي فترة التجنيد الإجباري فلا خوف على هذه الطريقة.

عندما رأيت الرجل يخرج كيس البودرة من معدة الطفل ثم يقوم بإعادة الخياطة لم أفقد قدرتي على التحمل بسبب ما رأيت، لقد قمت بتعذيب معتقلين بطرق أقسى وأشد ألف مرة مما شاهدته.. طرق ستجعلك تفقد وعيك في أقل من دقيقة. وجود طفل في هذا الموقف هو ما جعلني أشمئز وأشعر بجرحه كأنه بداخلي، لكل شخص نقطة ضعف وكانت نقطتي متعلقة بالأطفال منذ أن رزقني الله بولدين هما كل ما خرجت به من هذه الدنيا البائسة، متعة الدنيا أن ترى أطفالك يكبرون أمام عينيك، تعود من عملك فيستقبلونك عند باب الشقة ركضًا بالأحضان وابتسامات بريئة لن تراها أبدا في بالغ مهما بلغت به الطيبة، ابتسامة من يحبك بدون مقابل، ستقولُ له أعطني قبلة فيبتسم ويمسك وجهك بأصابعه الصغيرة ويقبلك قبلة مليئة باللعاب الذي لن تدري لماذا تحبه.. فقط لأنه متعلق بطفل بريء يحب الدنيا بدون انتظار أي شيء منها.

تقطعت نياط قلبي ولأول مرة أردت الانتحار، الطفل الذي يتعرض للعذاب يمكنه إذابة قلوب أشد الناس غلظة، من تستبدل طفولته بشق معدته لوضع مخدرات بداخلها إلى أن يذوب الجلد فوقها هو أشد الناس عذابًا.

******

قررت التصرف، اتصلت بأحد أصدقائي الضباط الذين لا يزالون في الخدمة، شرحت له ما اكتشفته حتى يصل الأمر إلى المسئولين ويتم تتبع واعتقال أفراد هذه الشبكة، وكما تستيقظ من

النوم تاركًا حلمًا جميلًا خلفك استيقظت على الواقع الأليم حين قال صديقي:

ــ ألا تعلم في أي زمن نحن؟ نحن في الزمن الذي نكافح فيه للحفاظ على مناصبنا، لا نريد أعمالًا جديدة.. تكفينا مهاجمة الصحافة والنظام الجديد والشعب لنا، مظاهرات فئوية يتم فيها ضرب الشرطة، مظاهرات لإسقاط الرئيس أو إجباره على العدول عن قراره يتم فيها ضرب الشرطة، مظاهرات لفتح السجون وإخراج المجرمين يتم فيها ضرب الشرطة.. ثم يتم اتهامنا بالتعدي على المتظاهرين، إن تركناهم يفتحون السجون أو يدخلون إلى القصر الجمهوري فقد خنا البلد الذي أقسمنا على حمايته، وإن تصدينا لهم تم اتهامنا بالتعدي على المتظاهرين، هذا الشعب الجاحد يستحق كل ما يحدث له. كيف يجري التقاعد معك؟ أبدأت بالبحث عن أي مشروع تجاري؟ لقد خدمت الكثير من الناس وآن الوقت لرد الجميل.

لم ولن ألومه، إن كنت في موقعه لما اختلف الوضع كثيرًا، لقد أعمانا الركض خلف المناصب والثروة فلم نعد نرى غيرها، كسيارة مسرعة على طريق سفر لا تستطيع رؤية الأشجار على جانبي الطريق، لا ترى غير أشباح أشجار. لم تعد لدي السلطة السابقة لإيقاف هؤلاء التجار، لا يوجد أمامي غير محاولة تناسي الموضوع والبحث عن مشروع تجاري كما نصحني صديقي.

******

بعد إجراء الكثير من المكالمات استطعت المشاركة في محل متوسط لبيع الأدوات الكهربائية، أذهب إلى المحل في الصباح ولا أعود قبل الثامنة مساءً كي أتفادى الملل الملتصق بالمنزل قدر استطاعتي.

في أحد الأيام وفى طريق عودتي من العمل وجدت أحد الأطفال الذين أصبحت أعرفهم عن ظهر قلب مهما تغيروا، لم ألحظ أحدهم منذ فترة وأتاني هاجس غريب عندما وجدت أحدهم بأن أذهب وأتفحصه عن قرب، اليأس والانكسار حينما يتمثل في طفل لم يتعد الخمسة عشر عامًا كان، اقتربت منه وفي كل خطوة أخطوها أشعر بذنب البشرية التي لا تستحق الحياه لتركها أطفالًا يتعرضون لمثل هذا العذاب من أجل المال والكيف.

عندما أصبح أمامي مباشرة لم أدر ما أفعله، شفقة تدفعك إلى البكاء اعترتني، بدأت في المسح على شعره كأني أواسيه، ثم لأزيد شعوري بالذنب حائر أن يتفتق ذهني إلى حل.. رفعت فانلته حتى ألقي نظرة على الجرح الذي تم شقه كثيرًا ثم إعادة خياطته.. كان الجلد مهترئًا بطريقة فظيعة غير آدمية.. ولكن شيئًا ما استوقفنى عندما رأيته.. شعرت بـــ Dejavu، وهو شعورك بالمرور بموقف ما من قبل أو رؤية شخص ما من قبل بدون أن تكون على معرفة به.. وكأنه سبق لي رؤية جرح كهذا.. لا أعلم رأيت الكثير من الجروح في خلال خدمتي من الطبيعي أن ينتابني هذا الشعور. أنزلت فانلته إلى مكانها، كل هذا والطفل

لا يعترض على أي شيء، إن جعلته يخلع ملابسه وأخذها معي لما قال شيئًا.. أي منا إذا تعرض لمثل ما يتعرض له لما اختلف الموقف، انصرفت قبل أن تكون المرة الأولى التي أبكي فيها.

مع إدارتي لمفتاح المنزل في قفل الباب تذكرت سبب شعوري بالــ Dejavu، كسيارة تسير بسرعة مئتي كيلومتر في الساعة اصطدمت بعجوز تعبر الطريق ببطء.. صدمتني ذاكرتي عندما تذكرت أين رأيت جرح كالذي في معدة الطفل.. صاعقة اجتاحت جسدي من شعر رأسي إلى أخمص قدمي.. شعور من اكتشف أن زوجته تخونه أو خسر ماله في القمار أو ضاع مستقبله إلى الأبد لأي سبب كان.. أو شعوري عندما تذكرت أين رأيت هذا الجرح من قبل.

******

كانت إحدى ليالي الشتاء وقد تم الإمساك بارهابي أراد تفجير نفسه في حي الحسين ليقتل بعض الأجانب، ولسوء حظه تم حبسه في قسم الشرطة الذي كنت مسئولًا عنه. عادة أعذب المعتقلين للخروج باعترافات على أماكن زملائهم أو للتوقيع على اعتراف قمت بكتابته بنفسي حتى أضمن النزاهة، ولكن حين الإمساك بمن أراد تفجير نفسه لقتل السياح متلبسًا.. فلا يوجد أمامي غير تعذيبه للمتعة وإعطاء دروس مهمة للضباط الجدد في فنون التعذيب.

وقفت أمام المعتقل الذي تم تعليقه من يديه وتمت تعرية جسده تمامًا ليصبح جاهزًا لتلقي كل فنون التعذيب التي

أصبحت أتقنها، بدأت بالجلد ونزع الأظافر ثم انتقلت إلى الكهرباء، في حين تثبيتي للقطب بداخل جسده لاحظت الجرح المهترئ في معدته وقلت للضباط الذين يشاهدون الدرس:

ـــ وهذا الجرح هو أحد الأضرار الجانبية للتدريب على تفجير نفسك.. لذا لا أنصحكم بالمحاولة حتى تحافظوا على أجسادكم نظيفة. الفتيات على الشاطئ لا يحببن الرجل ذا المعدة المهترئة، يجب أن تكون مشدودة سوية ولا حبذا إذا ظللتها عضلات Six Packs واضحة.

انفجر الضباط ضحكا وابتسمت مزهوًا بحس الدعابة القوي لدي حتى وأنا أقوم بعملي في تعذيب المعتقلين، ولأول مرة نطق الرجل وهو ينظر إلي بعينين نصف مغمضتين من التعذيب وصوت متقطع:

ـــ ليس.. لديك أدنى.. فكرة، كيف حصلت على.. هذا الجرح.

وتلخص رد فعلي على وقاحته البالغة التي تدفعه لأن يتكلم في وسط محاضرتي وأمام ضباطي بصفعة على الوجه أودعتها كامل قوتي،

حين عكف طبيب القسم وقتها على فحصه ليتأكد أنه لن يموت ويعطيني الضوء الأخضر لمواصلة التعذيب أو الضوء الأحمر للتوقف كي يظل على قيد الحياه، أخبرني أن الجرح ناتج عن شق معدته ثم خياطتها العديد من المرات إلى أن وصلت إلى هذه الحالة وأصبح الجلد هشًا مهترئًا، توقعنا وقتها أنه حاول التدريب على وضع العبوة الناسفة بداخل معدته ولكنه فشل فانتهى به الأمر إلى لفها حول وسطه.. الآن أصبحت الصورة واضحة.. هذا الإرهابي الذي قمت بتعذيبه تم استغلال سنوات طفولته بنقل المخدرات في معدته.. نحن المجتمع من صنعه.. في الفيلم الشهير عمارة يعقوبيان يقوم الممثل محمد إمام بتجسيد دور شاب أراد أن يدخل كلية الشرطة و لم

يستطع لعمل أبيه كبواب، ومن وقتها اتخذ طريق المتطرفين وانتهى به الأمر قاتلا ومقتولا، الأمر أكبر من هذا بكثير، لا يحتاج إلى مجرد تكسير حلم شاب أو إهانته، إنه يتعلق بفقدانه لإنسانيته وشعوره بأنه أرخص من الحيوانات التي لا تستخدم على حد علمي في هذه الأعراض، آلام على مدار أربع وعشرين ساعة..

مشرط للشق..

إبرة وفتلة للخياطة كي نستطيع مواصلة الشق غدًا..

يتعلق الأمر بفقدانه الرغبة في الحياة والرغبة في معاقبة هذا المجتمع الذي أهدام هذه الطفولة، يفقد الثقة في البشر وتصبح ميوله كلها منصبة على الأذى تعويضًا لما مر به، وهنا يأتي دور الجماعات الإرهابية التي لديها القدرة في استقطاب من لديه مثل هذه الميول إلى صفها، فيجد الشاب ولأول مرة في حياته من يوافقه الرأي على وجوب قتل الكفرة الفجرة وتنقية المجتمع منهم.

أسقط في يدي، لا أعلم لماذا أنا هنا اليوم، لا يوجد من أستطيع الحديث معه، الإرهابي والمجرم والقاتل هم صناعة المجتمع، كما قال المناضل الأمريكي الأشهر مارتن لوثر كينج.. «إنه يجب علينا الاهتمام بالبيئة التي صنعت المجرم وليس بالمجرم نفسه»، وبعد ما حدث أوافقه الرأي وأتمنى أن تصبح لدي رسالة في الحياة كرسالته، لأيام ظلت أفكر في طريقة تجعلني أصلح من حال مجتمعنا الملصم الذي على الاستعداد للانفجار في أي لحظة، لم أتوصل إلى شيء وشعرت بالضياع، ثم وجدت إعلانكم في الجريدة كطوق نجاة أخير.. حقيقة لا أظن أنكم تستطيعون المساعدة ولكن لا ضير من المحاولة.

******

الفصل الثاني عشر

في اللحظة التي أنهى فيها كمال حديثه غمر القاعة شعور عام بالذعر بدا واضحًا عندما بدأ جميع الحضور بالتلفت حولهم.. كأنهم يبحثون عن شيء لا يعلمون كنهه، كدمى مربوطة بحبال تشابهت حركاتهم ونظراتهم، إنه عقلهم الباطن الذي أدرك أن انتهاء اعتراف كمال يعني انتهاء اليوم.. وبالتالي عودتهم إلى وحدتهم وأحزانهم، عندما تتركك حبيبتك تشعر بالاكتئاب والضياع، وعندما تجلس مع أحد أصدقائك لتحكي له عمّا حدث ويبدأ في مواساتك تشعر بتحسن مؤقت، ينتهي عند عودتك إلى غرفتك فتجد جميع أحزانك في انتظارك بدون أي تغيير، تتذكر كل حديث حب هامس بينكما، أول لمسة يد وشعورك بعدها، حديثكما عن مستقبلكما معًا.. وهذا بالضبط ما حدث مع الحضور، الجميع حكى وفضفض بما يثقل صدره وسمع مصائب غيره فشعر بتحسن مؤقت يعلم جيدًا أنه سينتهي في اللحظة التي يجلس فيها وحيدًا.

دوى صوت أحد رجال الدين الذي حفظه الحضور عن ظهر قلب:

— كان هذا آخر اعترافات الليلة، لدينا الكثير من العمل الذي

سوف نعكف عليه لحظة خروجكم من القاعة كي لا نضيع أي وقت، الليلة تعتبر أول خطوة في طريق الخلاص، جميع اعترافاتكم تم سماعها وتسجيلها بدقة حتى نعكف على إيجاد حلول مبتكرة تنسيكم الماضي تمامًا وتجعل المجتمع يخطو إلى الأمام. سوف يتلقى كل منكم مكالمة في خلال أسبوع أو أسبوعين على الأكثر نكون خلالها قد أعددنا برنامجًا كاملًا للتوبة والإصلاح والتكفير عن الأخطاء، أستودعكم الله وأراكم بعد أسبوع إن شاء الله.

لم يحرك أي من الحضور ساكنًا كأن الطيور قد حطت على رؤوسهم، مرت دقيقة بدون أي تغيير كأنهم غير مستوعبين عودتهم إلى الوحدة والاكتئاب بهذه السرعة؛ مما جعل أحد رجال الدين يستحثهم قائلًا:

— الخروج من هذا الباب، ومن يحتاج إلى أي مساعدة في طريق العودة فلا يخجل من الطلب.

بعد قوله بدؤوا بالتحرك ناحية الباب آملين أن يتلقوا مكالمة المؤسسة في أسرع وقت ممكن للعودة إلى هذا الشعور الذي افتقدوه طويلًا، شعور أن هنالك من هم مثلك أخطأوا ولا يدرون ما العمل.. من أتى بسيارة أدارها وبدأ طريق العودة، ومن لا يملك وقف منتظرًا مرور إحدى المواصلات من أمامه.

******

الفصل الثالث عشر

أمام لهب المدفأة، وداخل غرفة محاطة جدرانها بأفخم أنواع الخشب، وعلى كرسي هزاز من النوع الذي يُقلب إلى شبه سرير Lazy Chair.. جلس الملياردير ألفريد هنري، وظلت أصابع قدميه تعبث بالسجادة الفرو الموضوعة بأسفله. نادى على خادمه حتى يشعل له غليونه ويساعده على ارتداء يده اليمنى الصناعية التي تصل إلى ساعده.. بعدما أحكم الخادم تركيب اليد الصناعية وأشعل الغليون صرفه ألفرد وشرد بأفكاره بعيدًا.. شرد بأفكاره عشرين عامًا إلى الوراء، العام الذى فقد فيه يده اليمنى.. أو بمعنى أفضل.. قطع يده اليمنى بنفسه.

إنه العقد الأخير من القرن العشرين، استقبله الكثير بالاحتفالات والرقص والخمر والقبلة الواجب حدوثها في الثانية عشرة تمامًا.. وإلا انفجرت البراكين وضربتنا الزلازل وعادت الديناصورات وغزتنا الكائنات الفضائية.. باختصار كل الروتين المعتاد حتى يشعر الناس أنهم سعداء ويعيشوا حياتهم وليسوا سجناء الأعمال «من

الثامنة حتى الخامسة». في خضم هذا الوقت ترك ألفريد هنري جميع الحفلات التي دعي إليها في مختلف أنحاء العالم وذهب إلى أحد البلدان الأفريقية حتى يتابع أعماله، كأي رجل أعمال يحترم ثروته ترك الحفلات وذهب حتى يجد حلًا لهذه المشكلة التي برزت فجأة في أهم منجم لديه في أفريقيا. منذ نحو شهر، هجم بعض الأفارقة علي منجمه واستولوا عليه مدعين أنه من حقهم وأن حكومتهم الفاسدة وهبته إياه برخص التراب.. بالتأكيد معهم حق ولكنه سبق ودفع عمولات حتى يحصل عليه ولن يتركه الآن لمجرد أن ضمير البعض استيقظ فجأة، حاول الاستعانة بالحكومة حتى تعيد المنجم إليه ولكنها أخبرته أن الذين استولوا علي المنجم مسلحون ولا طاقة لها بهم.

في البداية قام بزيارة خاطفة لرؤية من استولوا علي منجمه، وجد معظمهم مسلحين.. كل منهم يحمل مدفعًا رشاشًا كأنه جزء من طقم ملابسه، وعلي جميع المداخل تم وضع مدفع ضخم يمكنه أن يفجر حافلة بطلقة واحدة، وما لفت انتباهه هو وجود الكثير من النساء والأطفال في المنجم، وعندما استفسر عن وجودهم أخبره مساعده أن هناك قرية قريبة من المنجم انتقل الكثير منها للعيش بداخله.. وبدؤوا ببناء البيوت حوله حتى يستطيعوا الاستقرار ونقل جميع من في القرية، فارت دماء ألفريد عند سماعه لهذه الأخبار السوداء — من وجهة نظره بالتأكيد — وبدأ بالتفكير في كيفية التخلص منهم، أول ما خطر له هو طردهم.. القيام بتأجير بعض المرتزقة وما أكثرهم في أفريقيا، ولكنه أعدل عن هذه الفكرة

لأنها ستحدث ضجة من الممكن أن تجذب المنظمات الإنسانية التي تتاجر بمصائب الناس لجمع التبرعات وتكوين ثروات، أخذ يبحث الأمر مع مساعديه، وبعدما رأى ودرس خريطة المكان؛ تفتق عقله عن فكرة جهنمية بإمكانها أن تقضي على جميع من استولوا على منجمه بدون أي ضجة وبدون سقوط نقطة دماء واحدة.. سيستشير الحكومة ويوزع بعض الأوراق الخضراء ــ دولارات ــ حتى لا يعترضوا على خطته ثم يبدأ في التنفيذ.

كانت خطة ألفريد شديدة البساطة، وهي قطع المياه عن هذه القرية والقرى المجاورة لها بالكامل بما فيها المنجم.. و ذلك إلى أن يتم تسليم جميع أسلحتهم والخروج من المنجم. تعتمد مصادر المياه في أفريقيا على ثلاثة مصادر، الأول هو المياه السطحية كالأنهار، الثاني هو تحلية مياه البحر، والثالث هو المياه الجوفية ودق الآبار.. وكانت المياه الجوفية هي المصدر الوحيد للمياه في المنجم والقرى المجاورة له، فتقوم الحكومة وأحيانًا كبار القرية بدق بئر أو بئرين لتوفير احتياجات القرية من المياه. ما أقدم عليه ألفريد هو دراسة أماكن جميع آبار المنجم والقرى المحيطة به.. ثم تكليف رجاله بتفجيرها جميعًا، ناهيك عن قطع طريق قوافل الطعام التي تمر عليهم مرة كل شهر.. أمسك ألفريد بالورقة والقلم وبدأ يخط الأوامر لرجاله، فقد كانت جميع تعليماته سواء لرجاله في أفريقيا أو موظفيه في جميع أنحاء العالم كتابية كما اعتاد دائمًا لتوثيقها و لم يرد أن يغير من طريقته حتى بعد انتشار التكنولوجيا والإيميلات.

حين حانت ساعة الصفر أفاق ساكنو المنجم والقرى المحيطة بهم على صوت انفجارات عنيفة.. وحين وجدوا أن جميع الآبار قد تم تفجيرها هاجوا وتوعدوا بالانتقام.. ولكن الانتقام مِن مَن؟ وجدوا الآبار متفجرة وغير صالحة للاستعمال، ولكنهم لم يجدوا أحدًا حتى تتم محاسبته. لم يضع أيٌ منهم وقتًا وبدؤوا بحفر الآبار مرة أخرى، استغرقت هذه العملية منهم ثلاثة أسابيع.. كانت الأصعب في تاريخهم.. أنفقوا في خلالها جميع مدخراتهم من الطعام والشراب وسقط عجوز وطفلان موتى في خلال العمل. عند الانتهاء من حفر ثلاثة آبار كانت كافية لإعادة الحياة إلى القرى وإنقاذهم من الموت عطشًا بعد انتهاء جميع مدخراتهم من المياه والطعام، بدؤوا الاحتفال بنصرهم الصغير وظلوا مستيقظين حتى الفجر.. وكانت المفاجأة بانتظارهم حين استيقظوا في الصباح على صوت انفجارات أطاحت بالآبار الثلاث التي تم حفرها.. شعور من أمضى عمره في الادخار لابتياع منزل ثم عاد إليه ووجده قد تهدم بسبب زلزال أو خطأ إنشائي.. كانت غضبتهم هذه المرة مختلطة بإحباط وخوف على حياة صغارهم الذين لن يتحملوا ثلاثة أسابيع أخرى بدون مياه، ونسائهم اللاتي يُرضعن وقد جف حليبهن وعلا صوت أطفالهن الرضع من الجوع، وفي غمرة حيرتهم بعث إليهم ألفريد برسول ليبلغهم أن يخلوا المنجم تمامًا ويسلموا جميع أسلحتهم إذا أرادوا أن يذوقوا طعم المياه مرة أخرى.

******

بعد انصراف رسول ألفريد عقدوا اجتماعًا طارئًا.. أراد بعضهم الخضوع لرغبة ألفريد وتسليمه المنجم، في حين اعترض آخرون على الخنوع لرغبة من يريد سرقة خيرات أراضيهم بالقوة، وفي النهاية اتخذوا قرارهم بالتصدي لألفريد والعمل على إعادة حفر الآبار ثم حمايتها عند الانتهاء منها، وكان قرارهم ناجمًا عن خوف، الخوف من إبادتهم عند تسليمهم للأسلحة.. أراد الأغلبية الخضوع وتسليم المنجم ولكنهم أحجموا عن القرار خوفًا من قتلهم إذا سلموا الأسلحة كما طلب منهم.. لذا بدؤوا بحفر الآبار مرة ثانية ووضعوا رجالًا لحراسة كل بئر.

حينما علم ألفريد أنهم ضربوا بكلامه عرض الحائط استشاط غضبًا وأمر رجاله بانتظارهم حتى ينتهوا من الحفر ثم يقوموا بالتفجيرات مرة أخرى، في هذا الوقت قال له مساعده:

— مستر ألفريد لقد بدأ بعض الأطفال والكبار في السن من أهل القرى بالموت عطشًا، لو قمنا بتفجيره مرة أخرى فسيكون هذا بمثابة إعدام جماعي لهم جميعًا.

بصوت حاد تتخلله العصبية صرخ:

— ليتهم يموتون جميعًا ليريحونا، الغبي لا يستحق الحياة.. من يظنون أنفسهم حتى يستولوا على منجمي؟

— أمرك مستر ألفريد، هل ستسطر أمرك على ورقة حتى أسلمها للرجال.

في عصبية أمسك ألفريد ورقة وقلمًا وخط أوامره وقذف

الورقة في وجه مساعده.

أوشك رجال القرى على الانتهاء من حفر بئر واحدة، وكان هذا أملهم الأخير؛ لأن الموت عطشًا بدأ يصيب الكثير منهم، وكطفل صغير يبني جبلًا من الرمال على الشاطئ ثم يأتي أحد الصبية ليهدمه فيشعر الطفل بالقهر وأن تعبه قد ضاع.. هذا ما شعر به رجال القرى عندما تم تفجير البئر الوحيدة التي قاربوا على الانتهاء من حفرها.. مع فارق أن الطفل سيبكي لبضع دقائق ثم ينسى الموضوع برمته.. ولكن هؤلاء القوم سيبكون لبضع ساعات ثم يفارقون دنيانا. وهذا ما حدث.. فبعد تفجير البئر حاول بعض الرجال السفر إلى العاصمة لجلب المياه.. ولكن الموت تلقفهم في الطريق كما يتلقف الصقر فريسته، وبقية الرجال والنساء والعجائز والأطفال في القرية أتاهم الموت ولكن تباعًا، بدأ الأمر بالأطفال والعجائز.. ثم النساء الباكيات على جثث أطفالهن.. ثم الرجال الذين قاوموا للنهاية وكانوا يتوقون للموت بعدما رأوا الجثث شديدة النحافة لأطفالهم ونسائهم.. كأنهم أصبحوا مجرد جلد على عظام وقد تم سحب أي مكونات أخرى من داخل الجسد.. هذا هو الموت عطشًا.

عندما علم ألفريد بوفاة معظم ساكني المنجم والقرى وأن المتبقين في طريقهم للوفاة، لم يضع وقتًا وذهب ليتفقد أحوال منجمه العزيز، وبدأ في وضع خططه لاستثمار الأموال التي ستعود عليه عند إعادة تشغيل المنجم.. في البداية سيبتاع بعض

الأسهم في إحدى شركات الكمبيوتر الصاعدة، فالكثير من الخبراء يتحدثون عن أجهزة الكمبيوتر على أنها المستقبل، ثم سيقوم ببيع قصره في اليونان ويبتاع بدلًا منه جزيرة كجزر أريستوتل أوناسيس أغنى رجل في العالم في زمانه.. لطالما شاهد الفيلم الذي يحكي قصة حياته وبهرته فكرة أن يمتلك جزيرة كجزره.

وكسيف هوى على حبل فقطعه نصفين تم قطع حبل أفكاره وأحلامه السعيدة على منظر لم يره ألفريد في أسوأ فيلم رعب شاهده.. ففور اقترابهم من المنجم رأى الجثث، لم تكن مجرد جثث، كانت هياكل عظمية تم طلاؤها بالجلد فوقها.. كأن الأمعاء والدماء المفترض وجودها بالداخل قد تم انتزاعها بطريقة سحرية بدون حدوث أي ثقب في الجلد.. من رأى جثة أحد أطفال إفريقيا ضحايا المجاعات سيعلم ما رآه ألفريد، زد على ذلك شعوره أنه المسؤول الأول عمّا حدث لجميع هذه الجثث، وحين دخل المنجم تمنى لو باستطاعته دفن رأسه في الرمال كالنعام حتى لا يرى المئات من الجثث المكونة من هياكل عظمية مغطاة بجلد فوقها وهو السبب في مصيرهم الأسود..

بدأ رجال ألفريد بتنظيف المكان من الجثث وترتيب الاستعدادات لإعادة المنجم إلى العمل مرة أخرى. عادةً يبقى ألفريد فوق رؤوس من يعمل لديه حتى يتمم على كل خطوة بنفسه، ولكن في هذا اليوم طلب من سائقه الخاص أن يوصله إلى الفندق لأنه يحتاج إلى بعض الراحة، استغرب رجاله كثيرًا بعد أن علموا أنه سيتركهم في وقت التجهيز.. ولكنهم أرجعوا الأمر إلى أنه بدأ يثق بهم.

******

طوال الطريق إلى الفندق لم تغادر صور الجثث الممصوصة منها الحياة ذهن ألفريد، لصقت بذهنه كوشم تم دقه بداخل الجسد ولا سبيل للتخلص منه. فور دخوله إلى غرفته خلع ملابسه وترك جسده تحت الماء الساخن علها تستطيع انتزاع الصور من عقله، أنهى حمامه وارتدى الروب الخاص بالفندق ثم دخل لينام.

جموع غفيرة من الأفارقة بأجسادهم الهزيلة ووجوههم الممصوصة يركضون خلف رجل ذي ملامح أوروبية ويحاولون الإمساك به.. يستطيع البعضُ الاقتراب منه والإمساك بظهر قميصه ولكنه يصرخ ويزيد من سرعته فيفلت قميصه، يظل الرجل يصرخ بأعلى صوته ويحاول زيادة سرعته في الجري ولكن في النهاية يفلحون بالإمساك به.. وما يحدث بعدها جدير بأن يوضع كمشهد في أحد أفلام الموتى الأحياء Zombies، بعدما يقع على الأرض ينقض عليه جميع الأفارقة ويبدؤون في نهش لحمه والتهامه وهو على قيد الحياة.. يصرخ بأعلى صوته ويستغيث إلى أن يستيقظ غارقًا في العرق وفي الدموع التي ذرفها في نومه باكيًا حاله في المنام.

بالتأكيد خمنتم أن هذا هو الكابوس الذي لازم ألفريد منذ أن ذهب إلى المنجم ووجد كل هذه الجثث التي قتلت عن طريق قطع المياه على يده، بعدما رأى الحلم في الليلة الأولى أخبر مساعده أنه عائد إلى بلده ووكله بجميع مهامه. بعد عودته تكرر الكابوس بكامل تفاصيله في الليلة الثانية ثم الثالثة والرابعة، وعلى ضوئه بدأ يرى الكثير من الأشياء بأعين مختلفة..

بدأ يدقق النظر في أعماله التي يتخللها الكثير من الصفقات غير القانونية، واستجابةً لهاجس خفي لا يعلم هل هو شعوره بندم قتل الأفارقة أم هو مجرد استيقاظ مفاجئ لضميره؛ بدأ في البعد عن الصفقات المشبوهه والاكتفاء بالسليم منها، ثم بدأ بالتبرع لكثير من الجمعيات الخيرية، وأتبعها بافتتاح مؤسسة خيرية خاصة به.

ورغم كل التغيير الذي أدخله على حياته وكل المجهود الذي يبذله؛ ظل الكابوس يراوده بدون هوادة.

كاد أن يجن ولم يعرف ما العمل.. فترك عمله مؤقتًا وفوض مساعده بمباشرة الأعمال، وقرر التفرغ للبحث عمّا يجعل هذا الكابوس البشع يضل طريقه إليه. أول ما خطر على باله هو الذهاب إلى قس للاعتراف كونه مسيحيًا، ذهب إلى إحدى الكنائس الشهيرة وأخبر القس بكل ما أقدم عليه، ولكن لم تعجبه إجابة القس بأن يستغفر الله ويعمل صالحًا وأن الله غفور رحيم، فذهب إلى حاخام يهودي فأخبره بنفس الشيء ولكن بطريقة مختلفة، ثم إلى شيخ مسلم فلم يتغير الكلام.. لا يعلم ماذا يريد ولكن بالتأكيد لا تعجبه طريقتهم في حل الأمور، يريد حلًا عمليًا لا روحانيًا حتى يشعر أنه أنجز شيئًا، يعلم أنه تائه ولا يدرى ما يبحث عنه، ولكنه سيواصل البحث. ذهب للبحث في المعتقدات غير السماوية، فجرب الهندوسية وأخبروه أن الإنسان مخلوق من روح الرب والرب لا يخطئ إنما يغفل، وعقابه أن يبعث في هيئة أخرى غير بشرية، وبالتأكيد لم تعجبه طريقتهم.. بعدها حاول تجربة البوذية فعلم أن

التكفير بالنسبة لهم هو الاعتراف أمام أحد تماثيل بوذا وسوف تتم مجازاته عن أعماله عن طريق القدر أو الـــKarma، وعندما لم يقتنع سافر إلى جبال التبت كمحاولة أخيرة.. حدثوه عن تمارينهم وأسلوب حياتهم الذي سوف يخلصه من جميع همومه ويجعل روحه هي المتحكمة في جسده لا العكس، ودخل الكلام من الأذن اليمنى وخرج من اليسرى، وعندما لم يجد حلًا عاد إلى بلده.

بعد عودته زار أشهر الأطباء النفسيين كمحاولة أخيرة.. فكانت النتيجة أنه أصبح أسوأ حالًا من ذي قبل، فقد تنقل من طبيب إلى آخر وفي كل مرة ظل يحكي ما حدث ولكن بلا فائدة، فالجميع اتفقوا على أنه يجب أن يعترف بما أقدم عليه ثم محاولة إصلاحه وتعويضه عن طريق أعمال خيرية.

ظل الكابوس يزوره بلا هوادة كضيف ثقيل الظل يأتي بلا مواعيد ولكن بانتظام، وأصبح ألفريد قاب قوسين أو أدنى من فقدان عقله، وفي إحدى الليالي أتاه الكابوس واستمر أكثر من المعتاد، فاستيقظ وظل يصرخ إلى أن بُح صوته وبدأ في الحشرجة، ذهب إلى المطبخ وفي نيته الانتحار.. بحث بعينيه عن شيء صالح للاستخدام في قتل النفس، لم يجد غير الساطور الذى يستخدم في تقطيع قطع اللحم الكبيرة فأخذه ووضعه على رقبته.. ظل ممسكا به لدقائق ولم يجرؤ على ذبح نفسه، وعندما لم يستطع أجهش ببكاء عنيف لعدم قدرته على التخلص من هذه الحياة البائسة، ولم يكن منه إلا أن نظر إلى يده اليمنى التي وقّع بها أوامره إلى الرجال

كأنها السبب لا هو، لم يستطع قتل نفسه لمعاقبتها على ما ارتكبته؛ فصب عقله الباطن لومه على اليد التي لم تفعل شيئًا غير تنفيذ أوامر العقل ولكنها أصبحت الآن الملام الأول والأخير.. فوضع يده اليمنى على الطاولة ورفع الساطور بالأخرى وهوى به بكل عزمه عليها عند كوعه تمامًا، كان الألم لا يطاق ولكنه صرخ بكل عزمه ولم يتوقف وظل يهوي على يده بكل ما أوتي من قوة ولم يتوقف صراخه إلى أن ضرب الضربة الأخيرة التى أطاحت بيده بعيدًا عن جسده.. ولأول مرة منذ بدأ الكابوس في زيارته شعر براحة.

عندما رأى يده ملقاة أمامه على الأرض ذهب إلى أقرب هاتف ويده تنزف مخلفة خلفها خيطًا أحمر اللون.. هاتف الإسعاف وجلس على الأرض ينتظر. استيقظ في المستشفى، وفي اللحظة التي فتح فيها عينيه علم أنه قد شفي، إنها المرة الأولى التي ينام فيها ولا يهاجمه الكابوس ثقيل الظل، لم يرتح تمامًا وانتظر الليل حتى يتأكد.. مرت الليلة الثانية والثالثة والرابعة بدون أي كوابيس ولا حتى أحلام، وقتها فقط زارته ابتسامة على شفتيه كانت قد قطعت زيارتها له منذ أن كان في أفريقيا.

******

تغيرت حياة ألفريد مئة وثمانين درجة، تفرغ بالكامل للأعمال الخيرية وترك أعماله لمساعديه وأبنائه فيما بعد، وغني عن الذكر البعد الكامل عن أي أعمال مشبوهة وتصفية جميع أعماله في أفريقيا.

بعد افتتاح الكثير من المؤسسات الخيرية ومساعدة الكثير من الفقراء والمرضى، بدأ يفكر في مساعدة نوع آخر من المساكين، النوع الذي انتمى له في أحد الأوقات.. هؤلاء الذين أتوا على فعل غزا ضمائرهم فيما بعد وأصبحوا مرضى نفسيين غير قادرين على الحياة بشكل سوي، مرضى لا علاج لهم سواء نفسي أو من خلال الأدوية، مرضى كتب عليهم العيش مكسورين ومعذبين إلى آخر عمرهم بسبب لحظة ضعف أو غضب اقترفوا فيها ما فوق طاقة ضميرهم من احتمال، وهكذا بدأت فكرة «مؤسسة الأديان الثلاثة» في التكون داخل ذهنه، ولم يلبث أن وضعها قيد التنفيذ.

عندما أنشأ ألفريد مؤسسة الأديان الثلاثة، وضع لها ثلاث خطوات.. الأولى هي البحث عمن يريد الاعتراف بما فعل في الماضي، الثانية هي سماع الاعترافات، والثالثة هي... التكفير.

وأراد ألفريد لخطوة التكفير أن تكون كما حدث معه تمامًا حتى تؤتي مفعولها.. ماديًا لا معنويًا، ففي البداية وضع إعلانًا في الجريدة يدعو كل من يريد الاعتراف بماضيه والتكفير عنه بدون علم السلطات التوجه لأحد العناوين، فجاءه ثلاثة.. مغتصب وسارق وموظف مرتش، بعد سماعه لاعترافات الثلاثة ودراسة حالة كل منهم، قام بقطع العضو الذكري للمغتصب، واستخدام نفوذه في سرقة معظم ثروة السارق، وفضح الموظف في مكان عمله وتسبب له بالطرد. قد يظن البعض أن المؤسسة خانت الثقة التي منحها المعترف لهم.. ولكن ألفريد أنشأ المؤسسة حتى يعطي لمن

يريد التكفير عن ماضيه فرصة للشعور الحقيقي بالتكفير ونسيان الماضي، فالمجرم ليس إلا إنسانًا ينزف من الداخل والحل الوحيد لإيقاف النزيف هو عملية جراحية تقنع بها العقل أن المذنب قد دفع الثمن.. تمامًا كما شعر حين قطع بنفسه اليد التي سطر بها أوامره لرجاله كي يقطعوا المياه عن الأفارقة؛ مما أدى إلى موتهم عطشًا، هذا هو المنهاج الذي وضعه والذي سيسير عليه. بالتأكيد لم يتقبل أحد من الثلاثة ما حدث له، وبدؤوا بالبحث عن المؤسسة ورفع قضية لتعويضهم، ولكنهم لم يجدوا لها أي أثر، وكرجل أعمال محنك علم ألفريد أنه لا يستطيع مساعدة المزيد من المذنبين ـــ من وجهة نظره ـــ و إلا لوجده بعضهم وانتقموا منه؛ فأصبح يجري الإعلان والاعتراف مرة واحدة في كل بلد.

******

الفصل الرابع عشر

أفاق ألفريد من ذكرياته عندما انطفأ غليونه ونادى على خادمه مرة أخرى حتى يعاود إشعاله، وذهب ذهنه تلقائيًا إلى آخر تجربة للاعتراف قام بها في أول بلد عربي يدخله.. وجد عقله صعوبة في تصديق ما تسمعه أذناه من اعترافات في هذا البلد.. ليس لديه مشكلة مع القتلة والمغتصبين والسارقين، ولكن هذه المرة لا يوجد اعتراف واحد صريح، دائمًا هنالك طرف ثالث وأحيانًا رابع في القصة، شيء آخر أنه قد تعود على تصليح الخطأ بطريقة مباشرة.. كبتر أحد أطراف أو أعضاء القاتل أو المغتصب، أو التبليغ عما سرقه السارق، ولكن إذا نظر إلى الحالات الخمس التي جاءته؛ فلن يجد تصرفًا واحدًا مما اعتاد القيام به يصلح لهم.. حاول إغماض عينيه وإخلاء ذهنه تمامًا حتى يحاول التفكير والتوصل إلى حل.

أولًا لديه الطبيب، أصعب حالة ستواجهه.. مهما عاقبه فلن يختفي الشعور بالذنب من حياته، فابنته ما زالت تعيش بعيدة عنه مع أب لا تمت له بصلة، وما زال يعيش الأب المزيف في جنة زائفة،

وإذا أخذ الابنة من والديها وأعطاها لوالدها الحقيقي فستخسر الطفلة والدها، حتى لو علمت والدها بوالدها الحقيقي فلن تسمح لمجرم استغلهم في الاقتراب من ابنتها..

ثانيًا لديه الفلاح الساذج الذي غرته أضواء المدينة وانغمس في المخدرات؛ مما تسبب في اغتصاب فتاة صغيرة، لو كان هو من قام باغتصابها لسهل عليه الأمر كثيرًا، ولكن في هذه الحالة لا يعلم ما يجب عليه عمله..

ثالثًا الراقصة، في النهاية هي ضحية قصة حب فاشلة وخيانة ممن ظنته أقرب الناس إليها، ذنبها الوحيد أنها انتقمت بطريقة غبية آذت أحب الناس إليها..

رابعًا العاشق الصغير، بالتأكيد هو الوحيد الذى ليس له ذنب في أي مما حدث له، فقد حاول مقاطعة إخوته خوفًا على من أحب ولكنهم في النهاية استطاعوا الوصول إليها، على الجانب الآخر ليس من العدل أن يعيش على ميراث من قتلت بسببه حتى ولو لم يكن له أي دخل، لا يريد التبليغ عن إخوته حتى لا يصفي وحيدًا ولكن في النهاية هذا هو الحل الوحيد..

وأخيرًا هناك الضابط المعقد نفسيًا ولا يدري ماذا يريد، يكاد ألفريد يستشعر العقد الكامنة في نبرات صوته وطريقة كلامه، هذا شخص ليست لديه قدرة على الاعتراف بأنه أخطأ في الماضي، عقله الباطن لا يسمح له.. لذا حاول البحث عن مخرج إلى أن وقع على الأطفال الذين تم استغلالهم، فقام بإلصاق جميع ما فعله

في الماضي بما يحدث لهؤلاء الصبية، وفي قرارة نفس ألفريد يظن أن قصة هؤلاء الأطفال غير حقيقية ولكنها مجرد وسيلة حتى يستطيع الضابط الحديث عن شيء هو نادم عليه، بالتأكيد ليس واثقًا ولكنه سيبذل أقصى جهده في التحليل.

وحين شعر أنه أغلق عينيه لوقت طويل، اعتدل في جلسته وجذب جهاز اللاب توب، ثم بدأ يكتب القرارات التي استقر عليها عقله وسينفذها في كل واحد من المعترفين الخمسة.

الفصل الخامس عشر

عندما اقتربت الساعة من الواحدة ظهرًا ترك حسنين الفأس من يده وتوجه إلى ظل إحدى الأشجار للاستراحة، سمع صوت جلبة آتٍ من خارج الحقل وشعر أنها متوجهه إليه.. ولم يخب حدسه حين وجد أمامه أربعة رجال مفتولي العضلات ومعهم خامس نحيل الجسد يرتدي حلة فخمة، في لحظات وجد حسنين نفسه مقيدًا ومحاطًا بالأربعة رجال ووقف أمامه ذو الحلة الفاخرة، وبعربية ركيكة قال:

— مستر هسنين، نحن من منظمة الأديان الثلاثة، لقد قمنا بدراسة اعترافك وقررنا القيام بالتصرف الذي نراه مناسبًا وسوف يريحك، أنت مسلم الديانة وأخبرتنا أنك اتجهت للتدين بعدما تركت القاهرة وعدت إلى مسقط رأسك، بحثنا في دينك ووجدنا عقاب من تناول مذهبات العقل.. ووجدنا أنه الجلد ثمانين جلدة، لن نحاسبك على الفتاة التي تم اغتصابها لأنك لست المسئول عمّا حدث لها، ولكنك مسؤول عن تناولك

مذهبات العقل بإرادتك الكاملة وسوف تحاسب على هذا.

حاول حسنين الفكاك من قيد الأربعة رجال ولكنه لم يجد الفرصة، فقد قلبوه على بطنه ونزعوا عنه جلبابه، وقبل أن يستطيع الصراخ شعر بخيط من النار يلتهب على ظهره، أطلقت حنجرته صرخة عالية استجابة للألم الناتج عن الجلدة الأولى، وقطعت الصرخة عندما نزل خيط النار الثاني؛ فاهتز جسده بأكمله ولم يستطع الصراخ، شعر بعدم قدرته على الحركة وباللهب الذي يشتعل على ظهره مع الجلدة الثالثة ثم الرابعة والخامسة.. وبعدما أنهى الجلاد الثمانين جلدة وقع حسنين على الأرض فاقدًا وعيه.. وظهر جليًا ظهره أحمر اللون الذي امتزجت فيه الدماء مع الجلد واللحم، وفي هدوء انصرف الرجال الخمسة، تاركين حسنين الذي فتح عينيه ببطء بعد مرور ساعة كاملة مع شبح ابتسامة غير مكتملة على شفتيه.

******

دائمًا ما يتبع الاستيقاظ من النوم رؤية ضبابية غير مكتملة، ولكن في هذا اليوم حين استيقظت هند من النوم وفتحت عينيها انتظرت أن تنقشع الرؤية الضبابية.. أو بمعنى أفضل انتظرت أن تأتيها الرؤية الضبابية حتى تنقشع.. فتحت عيناها ولم يواجهها غير السواد، أغلقت عينيها ثم فتحتهما مرة أخرى ولم يتغير أي شيء، وضعت أصابعها على جفونها حتى تتأكد أنهما منفتحتان، بدأت أنفاسها تتسارع وانتابها الهلع، فحتى وإن كانت الكهرباء

مقطوعة فلن تشعر بهذا الظلام.. دوى في الفراغ صوت يتكلم العربية بركاكة:

— مسز هند، نحن منظمة الأديان الثلاثة، ولا تستغربي مناداتك باسمك الحقيقي فلا شيء يخفى علينا. لقد تم دراسة اعترافك، وعلى ضوئه قررنا أن التصرف المناسب هو المثل الشهير القائل «العين بالعين»، أنت تشعرين بالذنب لسببين؛ الأول هو تسببك في فقدان والدتك لنظرها، والثاني هو عملك الذي تعتبرينه غير مقبول نسبة لعاداتكم وتقاليدكم، عند فقدانك لبصرك ستتوقفين عن العمل كراقصة وفتاة ليل وفي نفس الوقت لن تشعري بالذنب على والدتك؛ لأنك أصبحت مثلها، لقد قمنا بالاتصال بإحدى الجمعيات الخيرية وهم في طريقهم إليك لأخذك لأحد ملاجئهم.. لن تعيشي بمثل الرفاهية التي اعتدت عليها ولكنك ستكونين سعيدة ونفسيتك رائقة، تحياتي.

أنهى كلامه وسمعت هند صوته وهو يتجه إلى الباب، حاولت القيام للإمساك به ولكنها تعثرت وسقطت على الأرض.. وقفت وعاودت المشي مرة أخرى ولكن ارتطمت ركبتها بطرف طاولة قصيرة فصرخت من الألم وسقطت مرة أخرى، شعرت بصوت انفتاح الباب ثم انغلاقه مرة أخرى.. وحينها علمت أنها وحيدة.. لن تتحمل العيش بدون بصرها إلى آخر عمرها بداخل ملجأ إحدى الجمعيات الخيرية.. كم كانت من الغباء أن تذهب بقدميها إلى تلك المؤسسة.. هي التي لم تعد تثق بأحد منذ أن خانها عمر، ظنت أن لا ضير من الاعتراف لهذه المؤسسة للشعور براحة مؤقتة

لن تلبث أن تزول. لقد اتخذت جميع قرارات حياتها بدون تردد ولن تتردد في هذا القرار أيضًا، وقفت وتحسست طريقها إلى الدرج بجانب السرير.. أخرجت منه علبة دواء فتحتها وقامت بابتلاع جميع الحبات بداخلها.. حين انتهت بدأت تشعر بدوار ورقدت على الأرض مدركة أنها بداخل سباق الموت والحياة، فإما أن تأتي الجمعية الخيرية كما أخبرها رجل المؤسسة وتنقذها، وإما أن يدركها الموت وتستريح إلى الأبد.

******

تلقى كريم خبر القبض على إخوته الثلاثة ببرود شديد، وقف غير قادر على الحراك ولا يدري هل يجب عليه الحزن أم لا، تسمر في مكانه لأكثر من ساعة بعد انصراف الشرطة وفي حوذتهم إخوته المكبلون بالأصفاد.. المئات من الذكريات مرت على ذهنه حتى أنهكته تمامًا وأصبح غير قادر على التفكير.. ذكرياته مع دينا ومصيرها الذي لاقته على أيدي إخوته، الصور التي لفقها إخوته لها للصق تهمة الخيانة بها، الوقت الذي اكتشف فيه ما سبق، وأخيرًا مؤسسة الأديان الثلاثة وهل هي السبب في القبض على إخوته أم لا؟ ازدحم عقله كثيرًا فلم يكن منه إلا أن توجه إلى غرفة النوم وترك جسده يسقط على السرير واستغرق في نوم عميق.

استيقظ كريم على صوت جلبة داخل المنزل، لم يرد النهوض من السرير ولكن صوت صراخ أبيه المسن أجبره على القيام والنزول لرؤية ما يحدث. وكمشهد مكرر ولكن في مكان آخر من الفيلا، رأى الكثير من رجال الشرطة وقد وقف أحدهم أمام والده فيما

يبدو أنها محادثة بين طرفين الأول على وشك الانفجار ــ والد كريم ــ و الثاني شديد البرود ــ الضابط، تقدم كريم من الضابط وسأله عما يحدث.. فلم تكن إجابته أقل برودًا من تصرفاته فلم يقل غير:

ــ منذ أن تم اتهام إخوتك في قتل زوجتك المتوفاة وقد صدر أمر بالتحفظ على جميع الممتلكات التي ورثتها من خلالها، و قد بدأنا بهذا البيت.

لم يظهر على كريم أي انفعال بعد سماعه هذه الأخبار التي ترادف خسارته لثروة طائلة يحلم بامتلاكها ٩٩٪ من سكان البشرية، وواحد في المئة فقط هو الذى لا يحلم بامتلاكها والسبب الوحيد هو أنه يمتلكها بالفعل. توجه إلى والده وهمس في أذنيه: «حان الوقت للعودة إلى منزلنا الذي شهد أمجادك، ولا أطيق البعد عن المكان الذي شهد أمجاد مثلي الأعلى»، وفي هدوء توجه معه إلى غرفته حتى يساعده في تغيير ملابسه.

عندما انتهى كريم ووالده من نقل جميع أغراضهم إلى البيت واستقروا به، بدأ كريم في البحث عن عمل، هو الذي لم يعمل أو يفكر في النقود منذ أن تعرف على دينا. كان صريحًا وواضحًا مع نفسه عندما قام بتحديد ما يريده من وظيفته، يريد أن يمسك بالعصا التي أولها المال وآخرها المتعة من المنتصف، فقام بالبحث عن عمل بإحدى المكتبات الشهيرة كونه عاشقًا للقراءة.. وبعد ثلاثة أشهر من البحث وجد عملًا بمكتبة كبيرة وراتب متوسط ولكنه كافٍ لأن يتكفل بطعامه وشرابه هو ووالده بدون أي

رفاهيات أو ادخار، أصبح يمضي اليوم بالمكتبة ثم يعود إلى المنزل في السابعة، فيقوم بالجلوس مع والده إلى أن ينام.. ثم يتفرغ للقراءة في شرفة منزله الواسعة، ليست كحياته مع دينا ولكنها المرة الأولى التي يشعر فيها بارتياح منذ وفاتها، خصوصًا عندما أتاه خطاب من مؤسسة الأديان الثلاثة يخبره أن حالته قد انتهت ويتمنون له التوفيق.

******

استيقظ على مذاق دماء تداعب لسانه، حاول فتح عينيه ولكن جفونه واجهت عصابة فوقهما تم ربطها بإحكام، وحين أعطى عقله إشارة إلى يديه بالتحرك شعر بالحبال التي طالما قيد بها المعتقلين أيام عمله في الأقسام وأمن الدولة.. إذن فقد تم خطفه وتقييده، ولكن لماذا؟ قطع حبل أفكاره صوت يتحدث العربية بركاكة:

ــ مستر كمال، نحن منظمة الأديان الثلاثة، وأرجو ألا تستغرب مناداتك باسمك الحقيقي.. فلا شيء يخفى على مؤسسة في مثل حجمنا. لقد قمنا بدراسة حالتك وتوصلنا إلى ما سوف يريح ضميرك، عندما عرضنا قصتك على أطبائنا النفسيين، جلسوا لدراسة وتحليل شخصيتك لوقت طويل وفي النهاية توصلوا إلى ما يزعجك.. هؤلاء الأطفال الذين تم استغلالهم لا يمثلون لك شيئًا، أنت لا تحب غير نفسك، في سنوات عملك في الأقسام

وأمن الدولة لم يكن ضميرك يؤنبك على ما تقترفه لوجود مقابل لما تفعله، أما عندما أجبرت على الخروج إلى المعاش و لم يعد هناك أي مقابل، استعاد عقلك جميع ما اقترفته وشعر بتأنيب الضمير ولكنك لم تعطه أي فرصة لهذا.. فقمت بحجب هذا الشعور واختبأ بداخل عقلك الباطن، وعندما رأيت هؤلاء الأطفال استغل عقلك الباطن هذه الفرصة لإخراج الشعور بالذنب في هيئة شيء آخر لأن كبرياءك لا يسمح لك بالاعتراف بأي خطأ.. أعلم تعقيد ما أخبرك به ولكنها الحقيقة وسوف نعالجها، ستنتظر معنا يومين سنقوم خلالهما بتنقيتك تمامًا.. ستصبح ضحية كأي من معتقليك الذين تعرضوا للتعذيب.

ومع انتهاء خطابه الصغير رأى كمال أدوات النظافة التي سيتم تنقيته من خلالها على حد قول هذا الأجنبي، فوجد مقشة يعلم جيدًا وجهتها، وأسلاك كهرباء تقشعر لرؤيتها الأبدان، وأدوات حديدية صغيرة لن يدري من يراها ماهيتها، ولكن كرجل أمن دولة سابق يعلم كمال جيدًا سبب وجودها، وللزوم الروتين تم وضع أكثر من كرباج بأحجام مختلفة، ومن بعيد داعبت أذنيه أصوات نباح كلاب تبدو غاية في الشراسة..

حاول كمال الصراخ ولكن صوته خرج مكتومًا ككلب يبكي.. ومن أعماقه تمنى أن يعود به الزمن ليختار أن يكون ضابطًا «على قد حاله» كما يقولون ولا يتعرض لما سوف يواجهه في هذين اليومين.

******

كان عادل فتحي طبيب النساء والتوليد أول من أدلى باعترافه في هؤلاء الخمسة، ولكن لصعوبة موقفه تركه ألفريد للنهاية حتى يأخذ وقتًا كافيًا للحكم عليه. هذه أصعب حالة تواجهه.. فمنذ أن بدأت مؤسسة الأديان الثلاثة نشاطها استمع إلى العشرات من الاعترافات وجميعهم يندى له الجبين، ولكن هذا العادل مختلف، إنه عبقري.. استغل منصبه ومهنته وقام بمخاطرة مجنونة غير محسوبة العواقب، مخاطرة ستظل آثارها تلاحق جيل أو جيلين من بعده.

لم يتعود ألفريد أن يغلب، ولكن اليوم هو أمام عملية مستحيلة، لديك مثلث تريد أن ترضى جميع أطرافه، فإما أن تعلن أن الفتاة ابنة الطبيب وفي هذه الحالة ستصدم الأم حين علمها بالإنجاب من رجل غير زوجها، إذا أخذ الفتاة ستتعذب الأم والأب غير الحقيقي، إذا قتل الفتاة سيتعذبون جميعًا، إذا ترك الوضع كما هو عليه فسيظل شعور عادل بالذنب كما هو وسيظل مفتقدًا ابنته التي ليست من حقه.

وعندما وجد أنه أمام حائط مسدود؛ قرر أن يأخذ عادل معه ليصبح أحد المسئولين عن المؤسسة، في هذه الحالة يكون قد انتزعه من ثروته المزيفة، وأبعده عن ابنته التي ليست من حقه، وفي الوقت نفسه سوف تتحسن نفسيته عندما يقدم على مساعدة الناس كما يفعل ألفريد تمامًا. بعدما تم خطف عادل وتخديره نقل إلى بلد ألفريد الأصلي، وداخل المقر الرئيسي لمؤسسة الأديان الثلاثة وجد عادل نفسه مقيدًا داخل زنزانة ووقف أمامه ألفريد قائلًا:

— نعم تريد إجابات، الأمر غاية في البساطة.. عندما سمعت

اعترافك علمت جيدًا أنك عقلية لا تتكرر مرتين في القرن الواحد، وكرجل أعمال محنك انتهزت الفرصة وأتيت بك إلى هنا كي تعمل معي، سوف يأتي أحد الرجال ليشرح لك طبيعة عملنا وأهدافنا.

— هل أنت مجنون؟ ما هذا العمل الذي يبدو أنني مجبر على عمله؟ أخرجني من هنا وحالًا.

— مسكين سوف تتعود.

— أخرجني حالًا قبل أن توقع نفسك في مشكلات قضائية.

ابتسم ألفريد ابتسامة من يرى طفلًا أمامه يهدد ويتوعد:

— هذه الزنزانة ستكون منزلك للأربعين عامًا القادمة، إذا أردت عيشة كريمة وطعامًا محترمًا فستساعدنا فيما نفعله، وإن رفضت وأردت أن تؤدي دور سبارتاكوس فستكون أربعين عامًا من الجحيم والعذاب.

أنهى ألفريد هذه الجملة واستدار منصرفًا، وامتزج صراخ عادل مع صوت خطواته وهو منصرف، صانعًا خلفية للوحة صنعت من عذاب ومرارة، لوحة حملت في طياتها أسوأ ما فينا من شهوات وآثارها على حياتنا.

******

تمت بحمد الله

محمد مجدى

٢٠١٣/٢/٥

لإبداء الرأى فى الرواية يرجى الدخول على الرابط التالى:
http://www.goodreads.com/book/show/17832187?ac=1

للتواصل مع المؤلف:
http://www.facebook.com/people/Mohamed-Magdy/616000356